التفسير

ا ــ تلتقى مادتا ــ ف س ر ، س ف ر ــ فى معنى الكشف ؛ ثم ترى السفر الكشف المادى والظاهر ؛ والفسر الكشف المعنوى والباطن . والتفعيل منه ــ التفسير ــ كشف المعنى وإبانته .

ويقدر الأقدمون أن مثل هذه المعارف ، فى اللغة والتفسير والحديث ، ليست علوماً بالمعنى المعروف فى العلوم العقلية ؛ فيرى بعضهم ألا يتكلف للتفسير حداً ولا بيان موضوع ومسائل ، لأنه ليس قواعد وملكات ناشئة عن مزاولة القواعد ، كغيره من العلوم التى استطاعت أن تشبه العلوم العقلية ؛ فيكتفى فى إيضاح التفسير بأنه : بيان كلام الله ؛ أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها (١) . . . ومنهم من يتكلف له التعريف فيذكر فى ذلك ، ما يشمل غير التفسير من العلوم ؛ كعلم القراءات ؛ كما يشمل أقداراً من علوم أخرى يحتاج إليها فى فهم القرآن ، كاللغة ، والصرف ، والنحو ، والبيان . . . والمسلك الأول أسلم ، وأبعد عن الإطالة بما ليس وراءه كبير جدوى .

والتفسير أحد العلوم ــ أو الدراسات الشرعية ــ التى حاول الأولون ضبطها باعتبار ما كعادتهم ، فقالوا : إنها إما مدونة لبيان لفظ القرآن ؛ وهو علم القراءة . وإما مدونة لبيان السنة النبوية لفظاً وإسناداً ، وهو علم الحديث ، وعلم أصوله وإما مدونة لاظهار ما قصد بالقرآن وهو التفسير . . إلى آخر ما يسوقونه من بيان هذا الاعتبار الضابط لأنواع العلوم الشرعية (٢)

ويعرضون فى هذا المقام لذكر التأويل ، وأنه هو والتفسير شىء واحد ، أو أن

---

١) المبادىء النصرية طبعة الخيرية سنة ١٣٢٠ هـ ص ٥

٢) الدر النضيد من مجموعة الحفيد لشيخ الاسلام أحمد بن [illegible] سنة ١٣٢٢ هـ ص ٢

دار الكتب

التفسير أعم من التأويل ؛ أو غير ذلك مما لا نطيل القول فيه . . . وأحسب أن منشأ هذا كله هو استعمال القرآن لكلمة التأويل . ثم ذهاب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها ، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب . . . ولعل من خير ما يحرر به معنى كلمة « تأويل » ما ذكره الراغب الإصفهانى مروياً عن ابن عباس فى رسالته « مقدمة التفسير » التى طبعت ملحقة بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن (٢) ؛ ثم تولى ابن تيمية تفصيل هذا الموجز وإيضاحه فى رسالته « الإكليل فى المتشابه والتأويل » (٣) وإن كنت لم أره يشير إلى ما ساقه الراغب الإصفهانى من معانى التأويل ، مع أنه أصل فكرته ولبها .

ب — نشأته

يرى ابن خلدون أول كلامه عن التفسير فى المقدمة ، « أن القرآن أنزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم . فكانوا كلهم يفهمونه . ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه والقول بأنهم كلهم يفهمونه فيه تعميم واسع ، لم يطمئن إليه الأقدمون أنفسهم ، فهذا ابن قتيبة ، قبل ابن خلدون ببضعة من القرون ، يقول فى رسالته المسائل والأجوبة (ص ٨) إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن ، من الغريب والمتشابه ، بل إن بعضها يفضل فى ذلك على بعض » . وأحسب ابن خلدون قد شعر بذلك فيما أورده بعد عباوته السابقة بأسطر ، فذكر أن فى القرآن نواحى للحاجة إلى البيان ، وقال : كان النبى — ص — يبين المجمل ، ويميز الناسخ من المنسوخ . ويعرفه أصحابه فعرفوه ، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا عنه » . وتلك

---

٢) رسالة الراغب المطبعة الازهرية سنة ١٣٢٩ ص ٤٢ .

٣) هذه الرسالة مطبوعة ضمن الجزء الثانى من مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية المطبعة الشرقيه سنه ١٣٢٣ .

الأمور وغيرها من مواضع الحاجة إلى الإبانة ، قد أحوجت منذ أول العهد الإسلامى إلى بيان القرآن وتفسيره .

ولعل الروعة الدينية لهذا العهد ، والمستوى العقلى لأهله ، وتحدد حاجات حياتهم العملية ، ثم شعورهم مع هذا ، بأن التفسير شهادة على الله بأنه عنى باللفظ هذا ، كل أولئك جعلهم لا يقولون فى تفسير القرآن إلا التوقيفى الذى نقل اليهم ، وروى عن صاحب الرسالة عليه السلام ، فكان أول ما ظهر من التفسير : تفسير الرواية ، أو التفسير الأثرى . وكان رجال الحديث والرواية ، هم أصحاب الشأن الأول فى هذا فرأينا أصحاب مبادىء العلوم ، حين ينسبون — على عادتهم — وضع كل علم لشخص بعينه ، يعدون واضع التفسير — بمعنى جامعه لا مدونه — الامام مالك ابن أنس(١) الأصبحى إمام دار الهجرة .

وهكذا تتصل نشأة التفسير ، بتاريخ تدوين الحديث ، وقد كان الامام مالك رضى الله عنه ، من قدماء المدونين فى الحديث ، ولو أن كتابه « الموطأ » لايشتمل — فيما رأيت — على الكثير من تفسير القرآن ، وفى كل حال قد حملت المجموعات الحديثية ، مقادير مختلفة من هذا التفسير ، حتى لنرى فى صحيح البخارى ، كتابين هما : كتاب تفسير القرآن ، وكتاب فضائل القرآن يشغلان حيزا واضحاً من الكتاب ، ربما كان نحو الثمن منه .

ولعل هذا المعنى من صلة التفسير بالحديث ، هو الذى يفهم به قول الأستاذ كارادى فو كاتب مادة التفسير فى دائرة المعارف الاسلامية « أنه فرع خاص هام من علم الحديث ، يعلم فى المدارس والجامعات » . . . وإلا فان ما استقر عليه الأمر أخيراً مكان التفسير بين العلوم الشرعية هو ما سقناه آنفا مبينا بالاعتبار الذى لاحظوه فى تنضيد هذه العلوم ، ولا يظهر فيه التفسير فرعاً خاصا من علم الحديث . ولو لاحظنا

---

١) المبادىء النصرية ، ص ٢٦ .

أن التفسير فيما بعد ، لم يقف عند الرواية ، وأن القول فى التفسير غير النقلى ، قد اتسع واستأثر بجهد العلماء وعنايتهم ؛ لولاحظنا هذا لوجدنا أن عد التفسير من فروع الحديث لا يظهر له وجه الا ما أشرنا اليه من هذه النشأة ، واتصاله فيها بالرواة والمحدثين ؟!

* * *

اشتهر برواية التفسير نفر من الصحابة رضى الله عنهم ، ويجتمع من هذه الرواية تفسير منسوب لابن عباس — رضى — هو الذى طبع باسم : تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ، للفيروزابادى صاحب القاموس المحيط . وحسبنا فى التعقيب على هذا ما يروى منسوبا إلى الإمام الشافعى — رضه — من قوله : لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث ، (١) مع أن هذا التنوير المنسوب اليه مطبوع فى نحو أربعمائة صفحة من القطع العادى .

وأكثر ناس من التابعين رواية التفسير ، وتردد ذكر أسماء منهم ، كانت أحكام نقاد الرواية من القدامى عليهم ليست بذاك ، فالضحاك بن مزاحم الهلالى المتوفى عام ١٠٢ أو ١٠٥ هـ — وإن وثقه نفر ، قد قالوا إنه روى عن ابن عباس ، ولم يلقه فطريقه عنه منقطعة ، وقالوا : فى جميع ما روى نظر ، إنما اشتهر بالتفسير (٢) . . . ن هذه العبارة الأخيرة ، إنما اشتهر بالتفسير ، ما يدلك على درجة تقديرهم لرواية التفسير ، وعطية بن سعد العوفى المتوفى عام ١١١ — الذى يروى عن ابن عباس ، قد ضعفوه (٣) . وإسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير ، وإن وجد من قبله ، قد قالوا إنه ضعيف وكذاب شتام (٤) ، والتفسير الذى جمعه قد رواه أسباط بن نصر ،

---

١) شذرات الذهب لابن العماد جـ ١ ؛ وخلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال ص ١٥٠ طبعة الخيرية سنة ١٣٢٣ هـ ، والاتقان جـ ٢ ، ص ٢٢٤

٢) الاتقان : الموضع السابق ، والتذهيب ص ١٣٦ والشذرات جـ ١ ،

٣) التذهيب وهامشه ص ٣٠ .

٤) الاتقان الموضع السابق ، والتذهيب ص ٢٢

وأسباط هذا لم يتفقوا عليه ، وقال النسائى ليس بالقوى (٤) . . . ومحمد بن السائب الكلبى المتوفى عام ١٤٦ هـ — وهو أحد الطرق عن ابن عباس ، مشهور بالتفسير ، وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشبع ، ومع ذلك فان وجد من قال : رضوه فى التفسير ، فقد وجد من قال : أجمعوا على ترك حديثه ، وليس بثقة ولا يكتب حديثه ، واتهمه جماعة بالوضع (٥) . . ومحمد بن مروان السدى الصغير ، الذى يروى عن ابن الكلبى السابق ، قالوا : إنه يضع الحديث ، وذاهب الحديث متروك . وإذا كانت رواية هذا السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فهى سلسلة الكذب (٦) . ثم مقاتل بن سليمان الأزدى الخراسانى المتوفى عام ١٥٠ — وهو المفسر الذى قالوا إن الناس عيال عليه فى التفسير ، وتنسب هذه الكلمة عنه إلى الشافعى نفسه ، ومع ذلك نراهم يقولون : إنه يروى عن مجاهد ولم يسمع منه شيئاً ، ويروى عن الضحاك ، ولم يسمع منه شيئا ، فقد مات الضحاك قبل أن يولد مقاتل بأربع سنين ويكذبونه ، ويضعفه من يستحسن تفسيره ، ويقول ما أحسن تفسيره لو كان ثقة ، وينقلون أنه كان يأخذ عن اليهود علم الكتاب (٧) . وأخيراً هذا أبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وهو من أوائل من دونوا الحديث قد رويت عنه أجزاء كبار فى التفسير ، ومع ذلك لاحظ النقاد أن ابن جريج فى التفسير لم يقصد الصحة ، وإنما روى ما ذكر فى كل آية من الصحيح والسقيم .

* * *

وهكذا نجد غير قليل من النقد التفصيلى لرواة التفسير النقلى ، كما نجد النقد الإجمالى لهذه المرويات فالإمام أحمد بن حنبل ، له الكلمة المعروفة ، ثلاثة ليس لها

---

٤) الاتقان الموضع السابق — والتذهيب وهامشه ص ٢٧٨

٥) التذهيب ص ٣٠٦ — والاتقان فى الموضع السابق .

٦) الاتقان : الموضع السابق — والتذهيب وهامشه ص ٣٣١

٧) الاتقان : الموضع السابق .

أصل : التفسير والملاحم والمغازى ، أى ليس لها إسناد لأن الغالب عليها المراسيل (١) ويقول ابن تيمية بعد ذكر وضع الحديث والأدلة القاطعة على كذبه ، وفى التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة ، كما يقول ، والموضوعات فى كتب التفسير كثيرة ، (٢) . . وهكذا لم يعتمد النقل التفسيرى على أساس من الثقة وطيد . كما سمعت من النقاد الأقدمين منذ الدهر الأول . . فاذا تساءل النقاد المحدثون عن قيمة الأحاديث الواردة فى هذه الكتب الجامعة ولم يصلوا بعد إلى رأى يعززها كثيراً كما يقول كارادى فو ، فان هؤلاء النقاد المحدثين لم يجيئوا بجديد فى هذا على ماترى ! ! إذ أن الاتهام قديم ! !

وقد كان من وراء ذلك أن تأثرت تلك المنقولات بكل ما فى البيئة الاسلامية من متناقل القصص الدينى ، محمولا إليها من مختلف الأنحاء . فقد كان اليهود فى ماضيهم الطويل قد شرقوا راحلين من مصر ومعهم من آثار حياتهم فيها ما معهم ، ثم أبعدوا مشرقين إلى بابل فى أسرهم ، ثم عادوا إلى موطنهم وقد حملوا من أقصى المشرق فى بابل ، وبعيد الغرب فى مصر ما حملوا ، وجاء البيئة العربية الاسلامية من كل هذا المزيج ما جاء إلى جانب ما بعثت اليه الديانات الأخرى التى دخلت تلك الجزيرة ، وألقت إلى أهلها ما ألقت من خبر أو قصص دينى ، وكل أولئك قد تردد على آذان قارئى القرآن ومتفهميه ، قبلما خرجوا إلى ما حول جزيرتهم شرقاً وغرباً فاتحين ، ثم ملأ آذانهم حين خالصوا أصحاب تلك البلاد التى نزلوها وعاشوا بها وإن كان الذى اشتهر من ذلك هو اليهودى ، لكثرة أهله ، وظهور أمرهم فدعيت تلك التزيدات التى اتصلت بمرويات التفسير النقلى باسم « الإسرائيليات » .

* * *

وابن خلدون فى مقدمته يذكر من أسباب الاستكثار من هذه المرويات ، اعتبارات اجتماعية ، ودينية أغرت المسلمين بهذا الأخذ والنقل ، الذى اتسعت له

---

١) ابن تيمية — مقدمة فى أصول التفسير ص ١٤ ط دمشق .

٢) المصدر السابق ص ١٩

كتب التفسير المروى فاشتملت على الغث والسمين ، والمقبول والمردود ؛ فيعد ابن خلدون من الاعتبارات الاجتماعية ، غلبة البداوة والأمية على العرب وتشوقهم لمعرفة ماتتشوق اليه النفوس البشرية . فى أسباب المكونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ؛ وهم إنما يسألون فى ذلك أهل الكتاب قبلهم . ثم يذكر من الاعتبارات الدينية التى سوغت عندهم هذا التلقى الكثير لمثل تلك المرويات فى تساهل ، وعدم تحر للصحة ، أن مثل هذه المنقولات ، ليست مما يرجع إلى الأحكام ، فيتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل ، فتساهل المفسرون فى مثل ذلك ، ومِلئوا كتبهم بمنقولات عن عامة أهل التوراة الذين كانوا بين العرب ، وكانوا بداة مثلهم ، لا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، ولا تعلق لها بالأحكام الشرعية التى يحتاط لها (١)

وسواء أكانت هذه هى كل ما هيأ لذلك من الأسباب ، أو كان وراءها أسباب أخرى . فى حياة الرواية ، وحياة العقيدة ، وضرورة تأثرها بما حولها ؛ فقد اتسعت على كل حال نقول التفسير ، لمثل هذه المرويات التى يبين البحث أنها شملت مزيجاً متنوعا من مخلفات الأديان المختلفة ، التى ترامت إلى علم العرب .

* * *

وما بنا بعد الذى عرف من تنبه الأقدمين إليها أن نبين كيف تترك أو يتقى أثرها ، فقد تصدوا لهذا وتحدث عنه غير واحد من المفسرين ؛ وإن كان الذى سلم من التأثر به فيهم قليل أو نادر .

وقد تداعى أشياخ الأزهر اليوم إلى تجريد كتب التفسير من هذه الاسرائيليات وهو أمر يسير الخطر ولعل الأجدى من هذا التجريد أن تنقد هذه المجموعة المركومة من التفسير النقلى ، على هدى قواعد القوم فى نقد الرواية متناً وسنداً ، ليستبعد منها هذا الكثير الذى لا يستحق البقاء ، ويستريح الناظرون فى الكتاب الكريم من الاتصال به ؛ إذا ما حاولوا تفهم آية ؛ فلا يقفون عند شىء لا أساس له .

---

١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ بتصرف

وأما هذه الإسرائيليات، كما سموها، فعلى الأشياخ أمامها واجب فى تاريخ آخر الأديان وتحقيق صلاتها؛ وهو واجب لا ينبغى أن يقوم به أحد قبلهم، ذلك هو جمع هذه القصص، ودرسها مردودة إلى أصولها، مبينة مصادرها ليدل ذلك على مسالك التأثر والتأثير بين الأديان، ومداخل اتصالها.

* * *

ونعود إلى مانحن بصدده هنا أولا؛ وهو التفسير النقلى، الذى كان أول أصناف التفسير نشأة، فقد جعلت تتناقله الطبقات شفاها، ثم تدوينا تدريجياً، حتى أفردت له المؤلفات الخاصة؛ واستمر ذلك، إلى أن تغيرت موجهات الحياة، وظهر تفسير جانبه العقل فيه آثر من جانب النقل، عنى المؤلفون به، وإن بقى فى كتبهم أثر من الروايات المنقولة، يرجعون بين الفينة والفينة، حتى فترت العناية عن إفراد التفسير المأثور بالتأليف المستقل.

ونكتفى بأن نشير هنا إلى ثلاثة من كتب تفسير الرواية، أحدها شرقى، والثانى غربى، والثالث مصرى، فأما الشرقى، فهو كتاب «جامع البيان فى تفسير القرآن» لابن جرير الطبرى المحدث المؤرخ الفقيه فى — فى ثلاثين مجلداً، وهو مطبوع. . ويقول كارادى فو، فى مادة تفسير بالدائرة؛ ويشمل تفسيره (ابن جرير) المطول كثيراً من الأحاديث المسندة الصحيحة». . وأكبر الظن أن هذا الحكم لا يقوم على فحص خاص؛ فابن جرير رحمه الله، لم يسلم من الرواية عن أولئك الذين قدمنا آراء نقاد الرجال فيهم؛ وقد لوحظ عليه مثلا، أنه يورد الكثير من طريق السدى، وهو ما لم يورد منه ابن أبى حاتم شيئا، حين التزم أن يخرج منه أصح ماورد (١) ولعل

---

١) الاتقان ٢ : ٢٢٤ وفى هذا الموضع من الاتقان أشرت لمواضع من الضعف في مرويات ابن جرير التفسيرية منها قوله: وطريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس منقطعة فان انضم الى ذلك رواية بشر بن عمارة عن أبي روق عنه فضعيفة بضعف بشر. . وقد أخرج من هذه النسخة كثيرا ابن جرير وابن أبي حاتم اه وأقول أنه ذكره اخراج ابن أبى حاتم عن هذه الطريق الضعيفة يتعارض مع ما سقناه من قوله قبل ذلك في س ٢ من هذا المقال وهو: ان ابن حاتم التزم أن يخرج منه أصح ما ورد

تفسير ابن جرير محتاج إلى النقد الفاحص ، احتياج غيره من تلك المرويات التفسيرية على ما قدمنا

وشخصية ابن جرير الأدبية والعلمية تجعل كتابه مرجعاً غير قليل الأهمية ، فى الصنف الثانى من التفسير ، أى تفسير الدراية ، فترجيحاته للمعانى المختلفة تقوم على نظرات أدبية ولغوية وعلمية قيمة . . فوق ما جمع كتابه من روايات أثرية . . .

* * *

وأما الكتاب الغربى ، فهو الكتاب الذى عرف باسم « المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز » لأبى محمد بن عبد الحق بن أبى بكر غالب بن عطية الغرناطى الأندلسى — ت ٥٤١ هـ — الذى يقول عنه ابن خلدون فى المقدمة « إنه لخص فيه كتب التفاسير كلها — أى تفاسير المنقول — وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة فيها ، ووضع ذلك فى كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس ، حسن المنحى » ، وهو مخطوط ، منه بضعة أجزاء فى دار الكتب المصرية ، وفى التيمورية رجعت إليها فوجدت من جملة وصفها ، أنه يعنى بالشواهد الأدبية للعبارات ، ويهتم بالصناعة النحوية فى غير إسراف . ولا يعنى بالوقوف مثل عنايته بالقراءات ، ويورد من التفسير المنقول ، مع الاختيار منه ، فى غير إكثار ، كما ينقل عن الطبرى ، ويناقش المنقول عنه أحيانا . . .

* * *

وأما الكتاب الثالث المصرى ، فيحسن أن نشير بين يدى الكلام عنه ، إلى ما كان لمصر من حظ قديم فى التفسير المنقول ، فقد حدثوا عن أحمد بن حنبل ، أن بمصر صحيفة فى التفسير ، رواها على بن أبى طلحة الهاشمى — وهو طريق جيد فى الرواية عن ابن عباس ؛ لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً وقد اعتمد

عليها البخارى فى صحيحه كثيراً فيما يعلقه عن ابن عباس كما ينقل ذلك عن ابن حجر(١)

وفى التفسير المنقول خلف جلال الدين السيوطى المصرى — ت ٩١١ هـ — كتاب « الدر المنثور فى التفسير المأثور » وهو مطبوع ؛ وقد ذكرت هذه الكتب الثلاثة فى الكلام عن نشأة التفسير من حيث كانت تفسيرا نقلياً ، وهو أول ما ظهر من صنوف التفسير ؛ وإن كنت أقدر أن هذه الكتب قد تفاوتت قيمها وأحوالها بهذا التراخى البعيد فى الأزمنة — من القرن الثالث إلى العاشر — وأن ما فيها من تفسير مأثور قد تأثر بما حوله من عوامل وموجهات ، يتبينها جلياً من يتصدى لتاريخ التفسير والتأليف فيه .

جـ — تدرج التفسير

وهنا أحب أن يقدر الدارس ، أنى لا أتصدى لكتابة تاريخ للتفسير ، أو تخطيط هذا التاريخ . وإنما هى إشارات عامة مجملة عن المعالم الكبرى فى حياته . . وذلك أننا لانجرؤ على التفكير فى كتابة تاريخ للتفسير يمكن أن يسمى تاريخاً بالمعنى الصحيح إلا بعد أن نقف على ما خلفت تلك العهود الطوال من آثار فيه ، وهى كثيرة واسعة ، متنوعة المقاصد والاتجاهات ، يدهشك ما تقرأ فى وصفها وسعتها وجلال مؤلفيها ففى القرن الثانى كتب عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة تفسيراً للقرآن عن الحسن البصرى رحمه الله (٢) وناهيك بهما جلالة قدر . ولأبى الحسن الأشعرى المتكلم ، كتاب المخزن ، لم يترك آية تعلق بها بدعى إلا أبطل تعلقه بها ، وجعلها حجة لأهل الحق ؛ وذكر بعضهم أنه رأى منه طرفا وكان بلغ سورة الكهف وقد انتهى إلى مائة

---

١) الاتقان ٢ : ٢٢٣ ، وفيه بعد هذا النقل « أن ابن أبى طلحة لم يسمع التفسير عن ابن عباس ، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير ويقول ابن حجر « إن الواسطة ثقة فلا ضير فى ذلك »

٢) ابن خلكان ١ : ٤٨٦ ط بولاق .

كتاب (١) . . إلى غير ذلك من صنيع له فى التفسير يذكرون عظيم قيمته . وللامام الجوينى تفسير كبير ، وللقشيرى تفسير كبير . وإلى جانب هؤلاء رجال اللغة والأدب يذكرون منهم : أبا طالب المفضل بن سلمة الكوفى (ق ٣) له كتاب معانى القرآن ، وابن الأنبارى (ق ٤) كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً من تفاسير القرآن بأسانيدها

وقد ألف كتاب « مشكل القرآن » أملاه فبلغ فيه إلى « طه » وما أتمه . وقد أملاه سنين كثيرة (٢) ولأبى هلال العسكرى كتاب المحاسن فى تفسير القرآن خمس مجلدات (٣) . . ولو رحت أذكر لك جانباً من هذه الطرائف التى كتبها أئمة الفنون المختلفة فى التفسير لملأت من ذلك صحفاً وصحفاً ، فهلا ترى معى ، أن من القحة علياً أن نزعم أننا نتحدث فى شىء من تاريخ التفسير ، قبل أن نخبر قدماً فى البحث عن هذه المكتب وجمعها ودرسها ! ! ! أحسب أن نعم .

وهل يود محبو العلم القرآنى ، ثم هذه المعاهد الدينية الفسيحة ، ثم الدولة معهم أن يجمعوا من ذلك كل ما عرفت الدنيا من هذا المكتوب عن القرآن ، أو صورة منه على الأقل ، قبل أن يفكروا فى أشياء كثيرة لا تقدم العلم الدينى ولا تؤخره ! ! !

* * *

وإذا ما نظرنا إلى المعالم الكبرى فى تدرج التفسير ، وجدنا ان صلة الاسلام بالحياة ، ومنزلة القرآن فى ذلك من حيث هو مرجع المسلمين فى شؤونهم المختلفة ، قد جعلت تدرج الحياة يظهر أثره واضحاً فى حياة التفسير . فبعد ما كان يشيع التحرج من القول فى القرآن حتى فى تفسير لفظة كالأب (٤) والخبر (٥) . صار الأمر إلى اختلاف الناس فى أن تفسير القرآن : هل يجوز لكل ذى علم الخوض فيه ؟ ! فرأى قوم أن من كان ذا أدب وسيع ،

---

١) تبيين كذب المفترى ص ١٣٣ ط الشام .
٢) طبقات الأدباء لابن الانبارى ص ٣٣٢ .
٣) ترجمه من مقدمة كتابه ديوان المعانى .
٤) قصة عمر رضه فى تفسير كلمة الأب .
٥) قصة أبى عبيدة والأصمعى فى تفسير كلمة الخبر

فوسع له أن يفسره ؛ وقال قوم لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن وإن كان عالما أديباً . . وإنما له أن ينتهي إلى ما روى عن النبي — ص — وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة — رضه — . . الخ . وكان التحقيق ، أن المذهبين هما الغلو والتقصير ، فمن اقتصر على المنقول إليه ، فقد ترك كثيراً مما يحتاج إليه ، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط (١) . وعلى أساس هذا التحقيق ذهبوا يبينون ما ينطوى عليه القرآن ، وما يحتاج إليه مفسره من العلوم ؛ ويذكرون شرائط المفسر ويعدون من ذلك علوماً لغوية وعقلية ، وموهبية ، من تكاملت فيه ، خرج من كونه مفسراً للقرآن برأيه ؛ لأن القائل بالرأى إذ ذاك إنما هو من لم يجتمع عنده الآلات التى يستعان بها فى ذلك ؛ ففسره تخميناً وظناً (٢) وهو التفسير بمجرد الرأى .

هكذا يلمح الناظر فى تدرج التفسير طرفين متقابلين ، ووسطا أو أوساطاً ، يختلف قربها من الطرفين ؛ فأما أحد هذين الطرفين وأولهما فهو : التحرج من القول فى القرآن على نحو ما يروى عن رجال من الصدر الأول ومن تلاهم ؛ والمنقول فى ذلك غير قليل ، وحسبك أن مالك بن أنس ، وهو الذى يذكر أصحاب المبادىء إنه واضع التفسير — بمعنى مدونه — يروى هو نفسه أن سعيد بن المسيب كان إذا سئل عن تفسير آية القرآن قال : إنا لا نقول فى القرآن شيئاً (٣) . . وأما الطرف الثانى المقابل فهو الذى تلمحه من عبارة الراغب السابقة ، وهو إجازة الخوض فى القرآن لكل أحد . والغزالى فى الإحياء (٤) . . بعد الاحتجاج والاستدلال على بطلان القول بألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما يسمعه يقول : فبطل أن يشترك الجماع فى التأويل ؛ وجاز لكل واحد أن

---

١) مقدمة التفسير للراغب الاصفهاني ص ٤٢٢ و ٢٣ ؛ وفي العبارة بعض اضطراب يسهل الترجيح معه بأن بعض لفظها محرف ؛ وقد أخذت منها بالبعيد عن ذلك .

٢) المصدر السابق ص ٤٢٥

٣) أصول التفسير لابن تيمية ص ٣١

٤) ١ : ٢٦١ ط الحلبي

يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله ؛ كما قال قبل ذلك . . « إن فى فهم معانى القرآن مجالا رحباً ومتسعاً بالغاً ، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه » . . هما طرفا نقيض — كما يقال — وتستطيع أن تلمح بينهما انتقالات تدريجية متعددة : فبعد التحرج ، أمكن الوقوف عند المنقول ، وكان ذلك المنقول قليلا ثم كثر النقل واتسع ، حتى استفاض وشمل ما ليس موثوقا به ؛ ثم داخلت النقل محاولات فهم شخصى تقبلوا منها أولا ما يرجع إلى اللغة وحدود دلالة الكلمات . . ثم ظلت محاولات الفهم الشخصى تزداد وتتأثر بالمعارف المختلفة حتى كان من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها فى علم التفسير كالذى فعله الرازى فى تفسيره حتى قال عنه بعض المتطرفين من العلماء : فيه كل شىء إلا التفسير (١) . . وإذا كان الراغب الإصفهانى فى أوائل القرن الخامس ، يرى خوض كل أحد فى القرآن يعرضه للتخليط ؛ فهذا أبو حيان فى القرن الثامن يقول إن ما ذكره الرازى وغيره فى التفسير يشبه عمل النحوى ، بينما هو فى علمه يبحث فى الألف المنقلبة ، إذا هو يتكلم فى الجنة والنار ، ثم يقول « ومن هذا سبيله فى العلم فهو من التخليط والتخبيط فى أقصى الدرجة (٢) . . وقد اختلف حظ المفسرين من هذا التعرض ، وإن قلت سلامتهم جميعاً منه

* * *

وأنك لتلمح على غرار هذا تدرج التدوين والتأليف فى التفسير ؛ فبينما توجد بمصر أو بغيرها صحيفة فيه ، كما سبق ، إذا هو جزء أو أجزاء تلقيت عن الصحابة ، ثم هى أكثر من ذلك مما يجمع أقوال الصحابة والتابعين ، ثم يختلط الفهم العقلى فيه بالتفسير النقلى رويدا ، كالذى تراه فى مثل تفسير ابن جرير الطبرى ، وما ذكرناه من كتب التفسير النقلى . ثم يغلب هذا الجهد العقلى على الكتب ، فيكون أظهر ما فيها ، وإن لم

---

١) أبو حيان البحر المحيط ١ : ٣٤١
٢) أبو حيان ؛ الموضع السابق

تخل مع ذلك من منقول يتصل بأسباب النزول مثلا أو يتصل بغيرها من المروى ، فترى الزمخشرى فى كشافه ، ينحو هذا النحو الخاص فى تفسير القرآن تفسيراً ينصر مذهباً بعينه ، ولكنه لا يخلى كتابه من هذا المنقول ، بل من ضرب ضعيف منه ، كالحديث الذى يسوقه فى فضائل القرآن سورة سورة ، فانه موضوع باتفاق أهل العلم (١) . وهكذا تداخل الصنفان ، واتجهت الكتب اتجاهات متنوعة ، بعد ذلك .

هـ — طرائق التفسير

رأينا ظهور الصنف الثانى من التفسير ، المقابل لتفسير الرواية النقلى ، وهو تفسير الدراية العقلى ، ورأينا كيف أنهما اتصلا وتداخلا ، واذا كان ابن خلدون يقول فى المقدمة ان ثانيهما قل أن ينفرد عن الأول إذ الأول هو المقصود بالذات وانما جاء هذا — الثانى — بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة . . نعم قد يكون — الثانى — فى بعض التفاسير غالباً ( ) ، اذا قال ابن خلدون هذا فانا لنقول له ، ان هذا الثانى قد وصل القرآن بثقافة المتصدين لتفسيره وصلا قوياً ، شديد الأثر ، انتهى الى التخليط الذى ذكره أبو حيان ، فأظهر ألواناً من التفسير هان فيها أمر النقل . . وهى طرائق من التفسير لعلها مما لا يسهل حصره وتبويبه ، اذا كانت متأثرة باعتبارات كثيرة متعددة واذا كانت علوم اللسان بعد ما صارت صناعة ، قد وجهت التفسير ، فان علوماً عقلية ونقلية قد وجهته توجيهات مختلفة ، وإن مقاصد وأغراضاً فى الحياة العملية ، سياسية وغيرها ، قد اشتركت فى هذا التوجيه أيضاً ، وتركت هذه وغيرها مناهج وكتبا كثيرة ، وأثرت فى مجرى الحياة والثقافة الإسلامية تأثيراً قوياً فعالا . .

ولئن كان جولد تسيهر فى كتابه « اتجاهات التفسير » ، قد تحدث عن تفسير الرواية والتفسير الاعتقادى ، والتفسير الصوفى ، والتفسير الشيعى ، وتفسير التجديد الإسلامى

---

١) أصول التفسير لابن تيمية ص ١٩

٢) المقدمة ص ٣٨٤

الحديث ، فألم بأصول كبرى ينطوى تحتها كثير من طرائق التفسير واتجاهاته ، فان الى جانب ذلك تفسيرات لغوية ونحوية ، وأدبية ، وفقهية ، وتاريخية ، وغيرها ، لعله لايسهل ادماجها فى هذه الأصول ، وليس يصح — فيما أرى — أن نتحدث عن هذه الاتجاهات واحداً واحداً ، لنبين أثرها فى توجيه فهم القرآن ، أو أثر اتصالها بالقرآن فى حياة تلك العلوم والفنون نفسها الا بعد أن يكتمل لنا العثور على أكثر ما يمكن من كتب ودراسات فى أنواع التفسير المختلفة ، ثم تنسيقها ودرسها فى روية واتقان درساً يهيء لمثل هذا القول الشامل فيها .

* * *

على أنا اذا ما تركنا فى هذا الإجمال الخاطف الكلام عن التفسير الصوفى والتفسير التشيعى فلم نقف عندهما لبيان ما زاداه على معانى القرآن ، وللحكم على منهجهما وما ماثله من مناهج لها طابعها المخالف ، فلم نتحدث عن الظاهر والباطن والحد والمطلع وما أشبه ذلك ، ولا عما أخذ من القرآن من علوم خفية أو خاصة ، وكان من عذرنا فى ذلك — فوق الإجمال وضيق الفرصة — أن مثل هذه الاتجاهات قد قل تعرض الحياة لها ، وخفت بلواها بها الآن . . ثم إذا ما تركنا الحديث عن الفنون الأدبية المختلفة ، وصلتها بالقرآن إلى فرصة أفسح ، وأهدأ ، من التاريخ الأدبى ، فانا رغم هذا كله لنشعر بضرورة القول فى صلة التفسير بالعلوم العقلية الظاهرة ، لأن فكرة تفسير القرآن بالعلم وأخذ هذه العلوم من القرآن ، قد حاربها نفر من القدماء والمحدثين جميعاً ، حتى ما نوافق على قول الأستاذ كارادى فو ، فى ختام مادة تفسير ما معناه أن تضمين التفسير كثيراً من الآراء المستقاة من الفلسفة والعلوم الحديثة محاولة فى تجديد دراسة التفسير ، لانوافق على هذا لأن وصل القرآن بالفلسفة والعلوم العملية محاولة جد قديمة .

و — التفسير العلمى

وهو التفسير الذى يحكم الاصطلاحات العلمية فى عبارة القرآن ، ويجتهد فى استخراج

مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها ، وقد وقع ذلك على رغم ما قرر فى ميادين علمية إسلامية مختلفة ، من قواعد فهم عبارة القرآن ، واتسع القول فى احتواء القرآن جمل العلوم جميعاً ، فشمل إلى جانب العلوم الدينية اعتقادية وعملية ، وظاهرة وخفية ، سائر علوم الدنيا . . ولعل الغزالى — فيما رأيت — كان إلى عهده ، أكثر من استوفى بيان هذا القول ، فهو فى الاحياء يعرض لهذا (١) . . ويقرر ، أن كل ما أشكل فهمه على النظار واختلف فيه الخلائق فى النظريات والمعقولات فى القرآن إليه رموز ، ودلالات عليه ، وأن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها ، ثم هو يزيد ذلك بيانا وتفصيلا فى كتابه جواهر القرآن (٢) الذى يبدو أنه ألفه بعد إحياء علوم الدين (٣) إذ يقعد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم مطلقاً من القرآن ، بعد ما بين فى الفصل الرابع قبله ، كيفية انشعاب العلوم الدينية كلها منه عن تقسيمات وتفصيلات تولاها ، وهو بعد ذكر العلوم الدينية ومالا بد منه لفهمها من العلوم اللغوية ، وبعد ذكر علم الطب والنجوم ، وهيئة العالم ، وهيئة بدن الحيوان ، وتشريح أعضائه وعلم السحر والطلسمات وغير ذلك ، يشير إلى أن وراء ذلك علوما أخر ، يعلم تراجمها ، ولا يخلو العالم عمن يعرفها ، وفى الامكان والقوة أصناف من العلوم بعد لم تخرج من الوجود وإن كان فى قوة الآدمى الوصول اليها ، وعلوم كانت قد خرجت إلى الوجود ، واندرست الآن ، فلن يوجد فى هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها ، وعلوم أخر ليس فى قوة البشر أصلا إدراكها ، والإحاطة بها ، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين . . ثم يعقب بأن هذه العلوم ، ما عددناها ومالم نعدها ، ليست أوائلها خارجة عن القرآن ، فان جميعها مغترفة من بحر واحد ، من بحار معرفة الله تعالى ، وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لاساحل له ، وان البحر « لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد » ، وعرض

---

١) فى الباب الرابع فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل جـ ١ : ٢٥٩ — ٢٦٤ ط الحلبى

٢) طبع بمطبعة كردستان العلمية بمصر سنة ١٣٢٩

٣) الغزالى : جواهر القرآن ص ٢٨ ، ٢٩

فى بيان أفعال الله ، والحاجة فى فهمها إلى مختلف العلوم كفعل الشفاء والمرض لا يفهمان إلا بالطب ، وفعله فى تقدير الشمس والقمر ومنازلها بحسبان لا يعرف إلا بالهيئة إلى أن يشير أخيراً إلى أنه لو ذهب يفصل ما يدل عليه آيات القرآن ، من تفاصيل الأفعال لطال ، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها (١) ، وهكذا ظهرت آثار الثقافة الفلسفية والعلمية للمسلمين فى تفسير القرآن كما ظهرت آثار التصوف واضحة فى التفسير ، وكما ظهرت آثار النحل والأهواء فيه ظهوراً جلياً . . . واستمرت هذه النزعة فى التفسير العلمى ، وأصبحت فيما يبدو وجهاً من تعليل إعجاز القرآن ، أو بيان صلاحية الاسلام للحياة ، وإذا كان هذا التفسير قد ظهر فى مثل محاولة الفخر الرازى ضمن تفسير القرآن فقد وجدت بعد ذلك كتب مستقلة فى استخراج العلوم من القرآن ، وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم . وراجت هذه الفكرة فى العصر المتأخر ، فأخرجت لنا مثل كتاب كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالاجرام السموية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية . لمحمد ابن أحمد الاسكندرانى الطبيب من أهل القرن الثالث عشر الهجرى ، وكتاب تبيان الأسرار الربانية فى النبات والمعادن والخواص الحيوانية له ، وقد طبع الكتاب الأول فى القاهرة سنة ١٢٩٧ هـ والثانى فى سوريا سنة ١٣٠٠ هـ . ومثل رسالة عبد الله فكرى باشا وزير المعارف المصرية سابقاً فى مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد فى النصوص الشرعية طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٥ هـ ، وانحاز إلى هذه الفكرة من رجال الاصلاح الاسلامى المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبى فاستخرج (٢) من القرآن مكتشفات حديثة ، يقول : إنه ورد التصريح أو التلميح بها فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً ، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء ، إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه . . كما يعرض لها فى إعجاز القرآن ، الأديب المصرى المرحوم مصطفى صادق

---

١) جواهر القرآن ٣١ — ٣٤

٢) طبائع الاستبداد ص ٢٦ — ٢٨

الرافعي (١) فيعقد فصلا عنوانه « القرآن والعلوم » يجنح فيه إلى مثل ما سبق من احتواء القرآن على جمل العلوم وأصولها ، ويأخذ في ذلك بالبعيد والقريب ، إذ ينقل كلمة السيوطي في الاتقان . حول أخذ الباحثين علومهم منه ، ويعلق على استخراج علم المواقيت من القرآن ، فيقول (٢) « وإذا أطلق حساب الجمل في كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور وتواريخها ، وأسرارها . ولولا أن هذا خارج عن غرض الكتاب لجئنا منه بأشياء كثيرة من القديم والحديث » . كما يشير إلى استخراج مستحدثات الاختراع ، وغوامض العلوم الطبيعية من القرآن ، ويذكر شواهد لذلك حتى ينتهي إلى أن يقول (٣) « ولعل متحققا بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن وأحكم النظر ، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم ، ولا يلتوي عليه أمر من أمره لاستخرج منه إشارات كثيرة ، تومىء إلى حقائق العلوم ، وان لم تبسط من أنبائها وتدل عليها ، وإن لم تسمها » . . ولعل من أكثر من جمع في هذا وأطال المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره . ومما يتصل بهذا من قرب ، ما ظهر من مؤلفات علمية عني أصحابها عناية خاصة بهذا الجانب ، وتوخوا هذا التطبيق ، كمحاضرات المرحوم الأستاذ محمد توفيق صدقي في سنن الكائنات وما أشبهها

* * *

ز ـ انظار التفسير العلمي

إذا كان الاتجاه الى التفسير العلمي قديماً ، وكانت العناية به أكثر نوعا ما . في العصر المتأخر ، فان المخالفة في صحة هذا التفسير قديمة أيضا ، ولعله اليوم أقل رواجا عند المثقفين . . . فأما المخالفة القديمة فيه ، فهي ما يبديه الأصولي الأندلسي ، أبو إسحق

---

١) إعجاز القرآن له ، ص ١٤٥ — ١٦٦

٢) الاعجاز له ص ١٥١ (هامش)

٣) الاعجاز له ص ١٦٤

إبراهيم بن موسى الشاطبي — ٧٩٠ هـ — في كتابه الموافقات (١) في أثناء أبحاثه عن القرآن إذ تكلم أولا . عن أن هذه الشريعة المباركة أمية ، لأن أهلها كذلك . فهو أجرى على اعتبار المصالح ، ودلل على ذلك بأمور ، ثم عقب بفصل عن : أن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس ، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق . واتصاف بمحاسن الشيم ، فصححت الشريعة منها ما هو صحيح ، وزادت عليه ، وأبطلت ما هو باطل وبينت منافع ما ينفع من ذلك ، ومضار ما يضر منه ، وذكر من ذلك علم النجوم وعلم الانواء . وأوقات نزول الأمطار وإنشاء السحاب ، وهبوب الرياح المثيرة لها ، ومنها علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية ، ومنها الطب وفنون البلاغة ، هذا من العلوم الصحيحة وذكر من الباطل علم العيافة والزجر ، والكهانة وخط الرمل ، والضرب بالحصى . والطيرة ، وقد أبطلتها الشريعة . . وهو يبين في كل ذلك ، أن الشريعة في تصحيح ما صحت ، وإبطال ما أبطلت ، قد عرضت من ذلك ما تعرفه العرب ، ولم تخرج عما ألفوه . . وبعد شرح هذه الفكرة المبينة لرأيه في علوم القرآن ، يتقدم لبيان ذلك ، باسهاب وإيضاح ويعقد لذلك بحثاً خاصاً ، يقول فيه : ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذهب أهلها وهم العرب ، ينبني عليه قواعد : — منها أن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات ، والتعاليم والمنطق ، وعلم الحروف ، وجميع ما نظر فيه الناظرون ، من هذه الفنون وأشباهها ، وهذا اذا عرضناه على ما تقدم لم يصح ،

ثم ينظر في حال السلف ، نظرة علمية ، فيحتج بها على صحة دعواه ، ويقول : والى هذا ، فان السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن ، وبعلومه ، وما أودع فيه ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم (٢) في شيء من هذا المدعى .

---

١) طبع السلفية ١٣٤١ هـ جـ ٢ ص ٤٦ وما بعدها

٢) يذكرنا قول الشاطبي هذا بما يورده الغزالي في الاحياء — ١ ، ٢٦١ ، من قول علي : من فهم القرآن فسر به جل العلم ، وتجد النفس حتى من صياغة هذه العبارة أشياء وأشياء ! !

سوى ما تقدم ، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف ، وأحكام الاخرة ، وما يلى ذلك ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة . الا أن ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم ، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه بتقرير لشىء مما زعموا . نعم تضمن علوما هى من جنس علوم العرب أو ما ينبنى على مجموعه مما يتعجب منه أولو الألباب ، ولا تبلغه ادراكات العقول الراجحة ، دون الاهتداء بأعلامه ، والاستنارة بنوره ، أما أن فيه ماليس من ذلك فلا . . .

وبعد ما احتج الشاطبى لدعواه ، عرض لأدلة أصحاب هذا التفسير العلمى ، فقال فى تلخيص حججهم : ربما استدلوا على دعواهم :

١ — بقوله تعالى ، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء ، وقوله : ما فرطنا فى الكتاب من شىء ونحو ذلك

٢ — بفواتح السور ، وهى مما لم يعهد عند العرب ، وبما نقل عن الناس فيها

٣ — بما حكى من ذلك عن على بن أبى طالب — رضه — وغيره

ثم تقدم لنقض هذه الأدلة واحداً واحداً فقال عن الأول : فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف أو التعبد . . أو المراد بالكتاب فى قوله «ما فرطنا فى الكتاب من شىء» اللوح المحفوظ ؛ ولم يذكروا فيها ما يقتضى تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية . . وفى الرد على الثانى يقول : وأما فواتح السور فقد تكلم الناس فيها بما يقتضى أن للعرب به عهداً ، كعدد الجمل الذى تعرفوه من أهل الكتاب ، حسبما ذكره أصحاب السير ، أو هى من المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى ، وغير ذلك وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ؛ ولم يدعه أحد ممن تقدم فلا دليل فيها على ما ادعوا . . وفى الرد على الثالث يقول : وما ينقل عن على أو غيره — وقد أورد منه طرفا — فى هذا لا يثبت ، فليس بجائز أن يضاف الى القرآن ما لا يقتضيه ، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ، ويجب الاقتصار فى الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه الى العرب خاصة فيه يوصل الى علم ما أودع من الأحكام الشرعية ؛ فمن طلب

بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه ، وتقول على الله ورسوله فيه . . وتلك هى الخلاصة الشاملة لما أكمله الشاطبى بيانا فى غير موضع من الموافقات ، بعد ماعرض لأصله الجامع ، فيما أشرنا اليه من صفحات . . .

واذا كان هذا هو الرأى القديم العهد ، فى فهم القرآن وفهماً يجعله مصدر العلوم المختلفة ، ويأخذ كله باصطلاحات حادثة بعده بأزمنة غير قصيرة فانك لتضم الى هذا البيان من النظرات الحديثة ما يؤيده ويعززه ، فمنها

١ — الناحية اللغوية ، فى حياة الألفاظ وتدرج دلالتها ، لو ملكنا منها مالابد لنا أن نملكه ، فى تحديد هذا التدرج ، وتأريخ ظهور المعانى المختلفة للكلمة الواحدة ، وعهد استعمالها فيها لوجدنا من ذلك ما يحول بيننا وبين هذا التوسع العجيب فى فهم ألفاظ القرآن ، وجعلها تدل على معانى واطلاقات لم تعرف لها ، ولم تستعمل فيها ، أو إن كانت تلك الألفاظ قداستعملت فى شىء منها ، فباصطلاح حادث فى الملة ، بعد نزول القرآن بأجيال . وسترى فيما يلى — من بيان عن التفسير اليوم ، وكيف يتناول — ما يكشف عن هذا الجانب كشفا كافياً

٢ — الناحية الأدبية أو البلاغية — إن شئت — والبلاغة فيما يقال : مطابقة الكلام لمقتضى الحال فهل كان القرآن على هذا النحو المتوسع من التفسير العلمى ، كلاما يوجه الى من خوطب به من الناس فى ذلك العهد ، مراداً به تلك المعانى المذكورة مع أنها معان من العلم لم تعرفها الدنيا الا بعد ما جازت آماداً فسيحة ، وجاهدت جهاداً طويلا . ارتقى به عقلها وعلمها ! ! ! وهب هذه المعانى العلمية المدعاة كانت هى المعانى المرادة بالقرآن فهل فهمها أهل العربية منه إذ ذاك وأدركوها ؟ !

وإذا كانوا قد فهموها فما لنهضتهم العلمية فى علوم الحياة المختلفة لم تبدأ بظهور القرآن ، ولم تقم على هذه الآيات الشارحة لمختلف نظريات العلوم المفهمة لدقائقها ! ! وإن كانت لم تفهم منها ، ولم يدركها أصحاب اللغة الخلص من عبارتها كما هو الواقع

فعلا فكيف تكون معانى القرآن المرادة ؟ ! وكيف تكون تلك الألفاظ مفهمة لها وهل هذه هى المطابقة لمقتضى الحال !

٣ — وهناك الناحية الدينية ، أو الاعتقادية ، وهى التى تبين مهمة كتاب الدين وهل هو كتاب يتحدث الى عقول الناس وقواهم العالمة عن مشكلات الكون ، وحقائق الوجود العلمية ؟ ؟ وكيف يساير ذلك حياتهم ، ويكون أصلا ثابتاً لها ، تختم به الرسالات السموية ، كما هو الشأن فى القرآن ، مع أن هؤلاء المتدينين لا يتفقون من معرفة هذه الحقائق عند غاية محدودة ، ولا ينتهون منها عند مدى ما ؟ ! فكيف تؤخذ جوامع الطب والفلك والهندسة والكيمياء من القرآن على نحو ما سمعت آنفاً ، وهى جوامع لا يضبطها اليوم أحد إلا تغير ضبطه لها بعد يسير من الزمن أو كثير ، وما ضبطه منها القدماء قد تغير عليهم فيما مضى ، ثم تغير تغيراً عظيما فيما تلا ! !

والحق البين أن كتاب الدين لا يعنى بهذا من حياة الناس ولا يتولاه بالبيان ، ولا يكفيهم مؤنته حتى يلتمسوه عنده ، ويعدوه مصدراً فيه

وأما ما اتجهت اليه النوايا الطيبة من جعل الارتباط بين كتاب الدين والحقائق العلمية المختلفة ، ناحية من نواحى بيان صدقه ، أو اعجازه ، أو صلاحيته للبقاء . . . الخ فربما كان ضره أكثر من نفعه ، على أنه ان كان لابد لأصحاب هذه النوايا ومن لف لفهم من أن يتجهوا اليه ، ليدفعوا مناقضة الدين للعلم ، فلعله يكفى فى هذا وبقى ألا يكون فى كتاب الدين نص صريح يصادم حقيقة علمية يكشف البحث أنها من نواميس الكون ونظم وجوده ، وحسب كتاب الدين بهذا القدر صلاحية للحياة ، ومسايرة للعلم ، وخلاصا من النقد . . . على أنى حين أتسمح بهذا القدر فى سبيل ارضاء رغبات هؤلاء الطيبى النية . لا أنسى أن أذكرهم بأن التناول الفنى لحقائق الكون ومشاهده ، هو التناول الذى يقصد به الدين رياضة وجدانات الناس . ويوجهه لعامتهم وخاصتهم ، وعلمائهم وأنصاف علمائهم بل لجهلائهم أيضا — كما هى مهمة الدين والغاية

من تلاوة كتابه بينهم جميعا وهذا التناول انما يقوم على المشهود البادى من ناحية روعته فى النفس ، ووقعه على الحواس ، وانفعال الناس به ، لا من ناحية دقائق قوانينه ومنضبط نواميسه فى معادلات جبرية أو أرقام حسابية ، أو بيان جاف لخصائصه وحقائقه . . وبقيام هذا التناول على المشاهد ، والمدرك بادىء الرأى ، والمؤثر فى النفس المثير للانفعال . لا يجب الوفاء فيه بحماية الحقائق العلمية ، والخصائص المجربة لهذه العوالم الموصوفة والمناظر التى لا يراد من تناولها الا اثارة الشعور بجلالها وجمالها ، ودلالتها على عظمة القوة المدبرة لها المحققة لنظامها ، ولو التزم فى شىء من هذا تصحيح المقررات العلمية لأخل هذا الالتزام كثيراً بالاهداف الفنية الوجدانية ، التى يريد الدين تحقيقها ونفع الحياة بها عن طريق التأمل المتدين ، والاعتبار النفسى العاطفى المريح قبل كل شىء آخر . . .

ومن هنا قد يبدو فى تعبير القرآن ما يظهر متعارضاً مع شىء من المقررات العلمية ، وان أمكن التوفيق بينهما . ولا أحسب ان عليه بأساً بشىء من هذا ولا فيه ضير . . . فخير لأصحاب هذه الرغبات الذين يبتغون الصدق ، و الاعجاز ، أو الصلاحية لكتاب الدين بهذا النحو من التفسير العلمى خير لهم أن يقدروا مثل هذا الاعتبار ، فلا يتكلفون ما يتكافون من ربط الكتاب بالعلم ، على أنهم ان كانوا لابد فاعلين فحسبهم كما تقدم . ألا يكون فى القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ، دون أن يمكن التوفيق بينه وبينها . . . وبيان هذا الأصل مما لا يسمح المقام فيه بأكثر مما قيل

وهناك نواح أخرى من النظر محدثة ، تؤيد الرأى القديم الذى بينه العقاطى فى كيفية فهم عبارة القرآن ، وتجعل من الخير ألا توجه العناية إلى مثل هذا الضرب من التفسير العلمى ، لأنه ليس بذى جدوى على القرآن نفسه ، والقرآن غنى عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذى يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنسانى الاجتماعى فى إصلاح الحياة ، ورياضة نفوس الناس جميعاً على اختلاف حظهم من العلوم الطبيعية والرياضية وما إليها .

ح ـ الوانه التفسير

وإنما نشير تحت هذا العنوان المتجوز إلى ظاهرة واضحة الأثر هى : أن الشخص الذى يفسر نصاً ، يلون هذا النص — ولاسيما النص الأدبى — بتفسيره له وفهمه إياه . إذ أن المتفهم لعبارة هو الذى يحدد بشخصيته المستوى الفكرى لها . وهو الذى يعين الأفق العقلى ، الذى يمتد اليه معناها ومرماها بفعل ذلك كله ، وفق مستواه الفكرى وعلى سعة أفقه العقلى . . لأنه لايستطيع أن يعدو ذلك من شخصيته ، ولاتمكنه مجاوزته أبداً . . فلن يفهم من النص إلا مايرقى اليه فكره ويمتد اليه عقله . وبمقدار هذا يحتكم فى النص ويحدد بيانه . فهو فى حقيقة الأمر يجر اليه العبارة جراً ، ويشدها شداً ، يمطها حينا إلى الشمال ، وحينا الى الجنوب ، وطوراً يجذبها الى أعلى ، وآونة ينزل بها الى أسفل ، فيفيض عليها فى كل حال من ذاته ولا يستخرج منها إلا قدر طاقته الفكرية ، واستطاعته العقلية ، وما أكثر ما يكون ذلك واضحاً ، حينما تسعف اللغة عليه ، وتتسع له ثروتها ، من التجوزات والتأولات ، فتمد هذه المحاولة المفسرة بما لديها من ذلك . . وإن المستطاع منه فى اللغة العربية لكثير وكثير .

على هذا الأصل وجدنا آثار شخصية المتصدين لتفسير القرآن ، تطبع تفسيرهم له ، فى كل عهد وعصر ، وعلى أى طريقة ومنهج ، سواء أكان تفسيرهم له نقلياً مروياً ، أم كان عقلياً اجتهادياً . ولعله لايبدو هذا الأثر الشخصى واضحاً فى التفسير المروى لأول وهلة ، ولكنك تتبينه اذا ماقدرت أن المتصدى لهذا التفسير النقلى إنما يجمع حول الآية من المرويات ، ما يشعر أنها متجهة اليه ، متعلقة به ، فيقصد الى ماتبادر لذهنه من معناها ، وتدفعه الفكرة العامة فيها ، فيصل بينها وبين ماروى حولها فى اطمئنان . . وبهذا الاطمئنان يتأثر نفسياً وعقليا ، حينما يقبل مروياً ويرضى به ، أو يرفض من ذلك مرويا — ان رفضه — ولم يرتح اليه . . وكذلك راج بين القوم — كما لاحظ ابن خلدون فيما أوردنا من عبارته — ماهم فى شوق اليه وتعلق به ، من

أخبار بدء الخلق ، ونشأة الوجود ، وتفصيل الاحداث الكبرى فى تاريخ الإنسانية الاولى لأميتهم ، وقلة المتداول بينهم منه ، فكانت كثرة الإسرائيليات ! ! وكان كل أولئك صورة عقلية لهذا العصر الاول

ومن هنا نستطيع القول بأنه حتى فى رواج التفسير النقلى وتداوله ، تكون شخصية المتعرض للتفسير هى الملونة له ، المروجة لصنف منه

أما حين يصير التفسير عقلياً اجتهادياً ، فإن هذا التلوين الشخصى يبدو أوضح وأجلى. وقد أشرنا الى ما لثقافة متعاطى التفسير ، من الاثر فى تفسيره ، اذ أن ثقافته ونوع معارفه هو الذى يحدد ناحية عنايته وميدان نشاطه ، وما ينتفع به فى استخراج معانى العبارة ، وما يعنى به قبل غيره من هـــذه المعانى ، فيتأثر التفسير بذلك كله ، ويتأثر تاريخ هذه المعارف نفسها بمزاولة التفسير ، أو الاهتمام به — كما سبقت الإشارة الى ذلك —

فأنت ترى — فى جلاء — ان التفسير ، على هـــذا التلوين — يتأثر بالعلوم والمعارف التى يلقى بها المفسر النص ، ويستعين بها فى استجلاء معانيه ، كما أن وصل هذه العلوم بالتفسير ، يكسب هاتيك العلوم نفسها ، ضربا من الثروة ، يقدر أثره فى تاريخها .. فالنحوى يلقى القرآن بأصول الصنعة الإعرابية ، يحكمها فى فهم معانيه ؛ ويحتكم اليها فى تحديد مدلولاته ، فيلون التفسير بمنهج دراسته وأسلوبها .. ثم هو بعد ذلك يترك فى حياة النحو بهذا الوصل آثاراً ، تعود على دراسته ، ويلتمس بيانها ، فى تاريخ حياة هذه المادة .. وهكذا تنوعت ألوان التفسير ، وتعددت بتعدد ثقافات المتصدين له ، فقد سمعت أن أبا الحسن الأشعرى المتكلم ، فى كتابه الذى سموه « المختزن » لم يترك آية تعلق بها بدعى ، الا أبطل تعلقه بها وجعلها حجة لأهل الحق . الخ . بل ينقلون من قوله هو نفسه فى وصف كتابه هذا : ان فيه من ضروب الكلام مسائل للمخالفين لم يسألوه عنها ولا سطروها فى كتبهم . ولم يتجهوا للسؤال ، وأجاب

عنه بما وفقه الله تعالى له (١) . . . وقد جاءك نبأ ما فعل الفخر الرازى فى تفسيره ؛ من جمع أقوال الحكماء والفلاسفة ، وشبههم فى الكلاميات ، حتى قيل فيه ما قيل آنفا .. فهـــذا ومثله تلوين كلامى للتفسير ، يضفى على القرآن ، من منهج علم الكلام ويوجه تفسيره ، وقد انتهى به الى نزعات مذهبية خاصة لعل من أشهرها كشاف الزمخشرى فى منحاه الاعتزالى ... كما تجد تلويناً فقهيا للتفسير ، وآخر بلاغيا ، وغيرهما قصصيا . . وهكذا مما تعد فيه كتب كل صنف وحدها ، وتوصف فى التاريخ التفصيلى للتفسير .. كما يبين فيه المحبب المقبول من هذا التلوين ، والمنفر المكروه منه ، كالتلوين الباطنى والإشارى المتطرف ، وما الى ذلك من تفسير مردود ، يخرج القرآن عن وضعه ، ويناقض الحكمة الإلهيه والغرض الاصلاحى من وصله بحياة الدين والدنيا ، وقد وصف القدماء مثل هذه الالوان المنفرة المستقبحة ، واستبعدوها .

أما ماعدا هذه المكروه من التلوين ، فقد ينجو من هذا الاستبعاد والاستنكار ، ولكن يبقى النظر فى تحقيقه للفائدة المرجوة من القرآن ، فيسلم فيه بذلك أو لايسلم .

وفى هذا يقول الاستاذ الامام (٢) رحمه الله « . . ان الاكثار فى مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الالهى ، ويذهب بهم فى مذاهب تنسيهم معناه الحقيق » . . كما يقول فى هذا الصدد أيضاً (٣) « . ان التفسير قسمان : أحدهما جاف مبعد عن الله وكتابه وهو ما يقصد به حل الالفاظ واعراب الجمل ، وبيان ماترمى اليه تلك العبارات والاشارات من النكت الفنية ، وهذا لاينبغى أن يسمى تفسيراً وانما هو ضرب من التمرين فى الفنون كالنحو والمعانى » . . ويقول عن التلوين الفقهى بخاصة (٤) « الاحكام العملية التى جرى الاصطلاح على تسميتها

---

١) ابن عساكر ـ تبيين كذب المفترى ص ١٣٣ ط دمشق ، بتغيير فى الضمائر فقط .
٢) تفسير الفاتحة ط المنار سنة ١٣٤٥ ، ص ٩ ، ١٠ .
٣) المصدر السابق ص ١٨ .
٤) المصدر السابق ص ١٠ .

فقها هى أول ماجاء فى القرآن ؛ وان فيه من التهذيب ودعوة الارواح الى مافيه سعادتها، والاستاذ رحمه الله حين ينفر من هذه الالوان يطمئن الى تلوين آخر وصفه فى غير موضع ، فما قال (١) عنه ، « والتفسير الذى نطلبه هو فهم الكتاب . من حيث هو دين يرشد الناس الى مافيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا ، وحياتهم الآخرة فان هذا هو المقصد الاعلى منه ؛ وماوراء هذه المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله » وكذلك يقول (٢) عنه « التفسير الذى قلنا انه يجب على الناس ؛ على أنه فرض كفاية » هو ذهاب المفسر الى فهم مراد القائل من القول ؛ وحكمة التشريع فى العقائد والاخلاق والاحكام على الوجه الذى يجذب الارواح ويسوقها الى العمل ؛ والهداية المودعة فى الكلام ؛ ليتحقق فيه معنى قوله (هدى ورحمة) ونحوهما من الاوصاف ؛ فالمقصد الحقيق وراء تلك الشروط والفنون ؛ وهو الاهتداء بالقرآن » هذا هو اللون الذى يجمل فى نظر الاستاذ الإمام ومنعود للنظر اليه بعد كلمة يسيرة عن :

ط ـ خطة التفسير

منذ عصر مبكر (٣) جعل القوم يتناولون تفسير القرآن على ترتيب سوره؛

---

١) المصدر السابق ص ٨ .
٢) المصدر السابق ص ١٩ .
٣) يقول عكرمة مولى ابن عباس ـ ت ١٠٥ هـ ـ « لقد فسرت مابين اللوحين » ـ اتقان ٢ : ٢٢٥ ـ ولابن جريج ـ ت ١٥٠ هـ ـ ثلاثة أجزاء كبار في التفسير ـ اتقان ٢ : ٢٢٤ فهذه العبارة وتلك الأجزاء الكبار إذا ما انضم إليها ملاحظة قوة اتصال القرآن بالحياة الاسلامية وشدة عناية القوم بأخذ الأحكام وغيرها منه ، وحاجتهم الملحة فى ذلك ؛ كل أولئك وما يشبهه مؤذن بأن تتبعهم لتفسير القرآن ، واستيفاءهم ذلك من سوره وآيه قد كان عملا مبكراً ، ولا أميل إلى تأخيره لنهاية القرن الثاني وأوائل الثالث ـ وصاحب ضحى الاسلام ـ ٢ : ١٤١ ـ يميل إلى عد الفراء ـ ت ٢٠٧ هـ ـ أول ماتعرض لآية آية حسب ترتيب المصحف وفسرها على التتابع ، آخذاً ذلك من نص فى فهرست ابن النديم ، وكتاب معانى القرآن للفراء فى أيدينا ، وهو شبيه فى تناوله للآى على ترتيبها فى السور بكتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة ـ ت ٢٠٩ هـ أو =

يقفون منها عند بعض الآية ، أو الآية ، أو الجملة من الآى . فيبينون مافيها على اللون الذى يؤثره المتناول وتضفيه شخصيته على تفسيره ، وما زالت تلك الخطة هى السائدة فى التفسير ، حتى عندما يعنى المفسر بناحية خاصة من القرآن ، ويؤثر موضوعا بعينه ، يتتبعه فى القرآن فبين يدينا مثلا كتاب أحكام القرآن للجصاص — ت ٣٧٠ هـ — وهو فقهى الاتجاه ، يعنى بهذا الجانب قبل كل شىء ، ولكنه مع هذا يتبع تلك الخطة التقليدية فى تفسير السور على ترتيبها ، والآى فى السور . . . وأقل من ذلك أن يتتبع المفسر موضوعا خاصاً فى القرآن ، يجمع متفرقه ، فترى مثل كتاب التبيان فى أقسام القرآن لشمس الدين بن قيم الجوزية — ت ٧٥١ هـ — الذى قصد فيه إلى درس موضوع خاص ، هو القسم فى القرآن ، قد انتظم نظرات عامة لصنيع القرآن فى الأقسام ، ولكنه مع ذلك لا يستقصى تتبع النظائر ويتولاها بالتفسير المقابل الذى يستعان فيه على فهم بعض القرآن ببعضه فهما يعطى الفكرة الموحدة عن المنهج القرآنى فى القسم بشىء خاص ، ويحصى ما ورد من ذلك فينظر فى جملته ، وان كان قد ألم بشىء من هذا إلماما سريعا لا يشفى . . . وتلك الخطة الغالبة فى تفسير القرآن على ترتيب سوره وآيه فيها ، مما هو موضع للنظر ، نقول فيه كلمة ضمن ما نعرض له من حديث عن:

التفسير اليوم

والقدماء فيما يقولون عن حياة العلوم الاسلامية قد قسموها ثلاثة أقسام : علم نضج واحترق وهو النحو والأصول ، وعلم نضج وما احترق وهو علم الفقه والحديث

حوالى هذا — . فان القطعة التى منه بأيدينا تتناول السور على ترتيبها ؛ وتعرض لما فى السورة من آى تحتاج لبيان مجازها أى المراد بها ، فليس للقراء أولية شخصية فى هذا ، بل كانت تلك على ما يبدو خطة العصر ، ولعله لو وقع إلينا شىء مما قبل ذلك العهد لرجح أن هذا التناول المرتب لتفسير سور القرآن وآيه أقدم عهداً من صنيع الفراء وأبى عبيدة بغير قليل

وعلم لا نضج ولا احترق ؛ وهو علم البيان والتفسير . . . ويشاء الله أن يكون علم البيان وعلم التفسير من أول ما أقوم على خدمته فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . . فيكون قول القدماء أنفسهم بعدم نضجهما إذناً صريحا منهم بالمحاوله المجددة فى حياة ماتين المادتين وقد تقدمت الى هذه المحاولة . تحت الشعار الذى اتخذته لنفسى وهو : أول التجديد قتل القديم فهماً ؛ وأراد الله أن يكون فى دائرة المعارف الاسلامية أول تسجيل لاجمال هذه المحاولة المجددة فى مادة البلاغة ؛ وها هى ذى أول من يسجل أصول هذه المحاولة فى مادة التفسير

١ ـ القرآن كتاب العربية الأكبر

فى الذى مضى من القول عن « ألوان التفسير » بيان للأغراض التى كان يقصد إليها المفسرون ، ويعنون بتحقيقها أكثر من غيرها ؛ وقد سمعنا الأستاذ الإمام رحمه الله ، ينقدهم فيما آثروا من أغراض ؛ ويرى أن الغرض الأول والأهم فى التفسير ، أن يكون محققاً لهداية القرآن ورحمته مبيناً لحكمة التشريع فى العقائد والأخلاق ، والأحكام على الوجه الذى يجذب الأرواح . . . الخ . فالمقصد الحقيق عنده : هو الاهتداء بالقرآن وهو مقصد جليل ولا شك . . يحتاج المسلمون الى تحقيقه

لكن ليس بدعا من الرأى أن ننظر فى هذا المقصد لنقول : انه ليس الغرض الأول من التفسير ؛ وليس أول ما يعنى به ويقصد اليه ؛ بل ان قبل ذلك كله مقصداً أسبق ؛ وغرضاً أبعد ؛ تتشعب عنه الأغراض المختلفة ؛ وتقوم عليه المقاصد المتعددة ؛ ولابد من الوفاء به قبل تحقيق أى مقصد آخر ؛ سواء أكان ذلك المقصد الآخر ؛ علمياً أم عملياً ؛ دينياً أم دنيوياً . . وذلك المقصد الاسبق والغرض الأبعد هو النظر فى القرآن من حيث هو كتاب العربية الأكبر ، وأثرها الأدبى الأعظم ؛ فهو الكتاب الذى أخلد العربية ، وحمى صلتها وخلد معها ، فصار فخرها ؛ وزينة تراثها ؛ وتلك صفة

للقرآن يعرفها العربى مهما يختلف به الدين أو يفترق به الهوى ؛ ما دام شاعراً بعربيته مدركا أن العروبة أصله فى الناس، وجنسه بين الأجناس ؛ وسواء بعد ذلك أكان العربى مسيحياً أو وثنياً ؛ أم كان طبيعيا دهرياً ؛ لادينياً ؛ أم كان المسلم المتحنف ؛ فانه سيعرف بعروبته منزلة هذا الكتاب فى العربية ؛ ومكانته فى اللغة ؛ دون أن يقوم ذلك على شىء من الايمان ؛ بصفة دينية للكتاب أو تصديق خاص بعقيدة فيه . . وليس هذا شأن العرب فحسب ؛ بل ان الشعوب التى ليست عربية الدم أصلا ؛ ولكن وصلها التاريخ وسير الحياة بهذه العروبة ، فارتضت الاسلام دينا ؛ أو خالطت العرب فساطت دماءها بدمائهم ؛ ثم اتخذت العربية أصلا من أصول حياتها الأدبية . . حتى ربطتها بالعربية هذه الاواصر الوثقى ؛ الى أن صارت العربية عنصراً أساسياً ؛ وجانبا جوهريا من شخصيتها اللغوية الفنية ؛ قد صار لكتاب العربية الأعظم وقرآنها الاكرم مكانه بين ما تعنى به ؛ من دراسة أدبية وآثار فنية قولية ؛ فألزمها كل أولئك تناول هذا الكتاب بدراسة أدبية ؛ تتفهم بها أصول ما ورثت من تلك العروبة إن كانت عربية النجار ؛ أو كانت قد اتصلت بتلك العروبة اتصالا حيوياً قوياً ؛ دفع شخصيتها ؛ وسير وجودها ، ووجه حياتها . . فالعربى القح ، أو من ربطته بالعربية تلك الروابط ؛ يقرأ هذا الكتاب الجليل ، ويدرسه درسا أدبياً ، كما تدرس الأمم المختلفة عيون آداب اللغات المختلفة . وتلك الدراسة الأدبية لأثر عظيم كهذا القرآن هى ما يجب أن يقوم به الدارسون أولا وفاء بحق هذا الكتاب ؛ ولو لم يقصدوا الاهتداء به أو الانتفاع بما حوى وشمل ؛ بل هى ما يجب أن يقوم به الدارسون أولا ولو لم تنطو صدورهم على عقيدة مافيه أو انطوت على نقيض ما يردده المسلمون الذين يعدونه كتابهم المقدس ؛ فالقرآن كتاب الفن العربى الأقدس ؛ سواء أنظر اليه الناظر على أنه كذلك فى الدين أم لا

وهذا الدرس الأدبى للقرآن فى ذلك المستوى الفنى ، دون نظر إلى أى اعتبار ؛ دينى ، هو مانعتده وتعتده معنا الأمم العربية أصلا والعربية اختلاطا ؛ مقصداً أول

وغرضاً أبعد يجب أن يسبق كل غرض ويتقدم كل مقصد .. ثم الكل ذى غرض أو صاحب مقصد بعد الوفاء بهذا الدرس الأدبى أن يعمد إلى ذلك الكتاب ، فيأخذ منه مايشاء ، ويقتبس منه مايريد ، ويرجع إليه فيما أحب من تشريع ، أو اعتقاد ، أو أخلاق ، أو اصلاح اجتماعى ، أو غير ذلك . . وليس شىء من هذه الأغراض الثانية يتحقق على وجهه إلا حين يعتمد على تلك الدراسة الأدبية لكتاب العربية الأوحد دراسة صحيحة كاملة مفهمة له ، وهذه الدراسة هى ما نسميه اليوم تفسيراً . لأنه لا يمكن بيان غرض القرآن ولافهم معناه إلا بها

فجملة القول : أن التفسير اليوم — فيما أفهمه — هو : الدراسة الأدبية ، الصحيحة المنهج ، الكاملة المناحى ، المتسقة التوزيع . والمقصد الأول للتفسير اليوم أدبى محض صرف ، غير متأثر بأى اعتبار ، وراء ذلك . . وعليه يتوقف تحقق كل غرض آخر يقصد اليه . . هذه هى نظرتنا الى التفسير اليوم وهذا غرضنا منه ، وعلى هذا الأساس تقدم لبيان طريقة تناوله ومنهج درسه .

٢ — أثر ترتيب القرآن فى تفسيره

ونقف بين يدى الخطة فى مسألة الترتيب لنبنى عليها الرأى فى كيفية تناول التفسير ، وهل تتبع فيه الخطة التى سادت حتى اليوم — كما تقدم — فندرسه على ترتيب سوره وآيه فى السور ، أو على غير هذا من ترتيب ؟

والقرآن — كما هو المعروف — لم يرتب على الموضوعات والمسائل ، فيفرد كل شىء منها بباب أو فصل ، يجمع ما ورد فيه عن هذا الموضوع أن تلك المسألة ، فليس على ترتيب كتب العقائد مع ما فيه من أصول العقيدة ، وليس على ترتيب كتب التشريع مع ما فيه من أصول التشريع ، ولا هو كذلك على نسق كتب الاخلاق أو التاريخ ولا القصص ، ولا غير ذلك . . بل ليس على ترتيب بعض كتب أفردت أحداث الحياة بأسفار عنونت كل سفر منها بحادث ، أو حين

حياة فرد خصت كل حين منها بقسم كما لم يرتب على شيء من تاريخ ظهور اياته . . إنما جرى القرآن على غير هذا كله ، فعرض لكثير من الموضوعات ، ولم يجمع منها واحداً بعينه . فيلتقى أوله بآخره ، ويعثر به فى مكان معين . . وإنما نثر ذلك كله نثراً ، وفرقه تفريقا ، فالحكم التشريعى فى أكثر من موضع ، والأصل الاعتقادى قد عرض له غير مرة ، والقصة قد وزعت مناظرها ومشاهدها فى جملة أماكن ، وهكذا تقرأ فى السورة الواحدة فنوناً من القول ، وتمر بألوان من الاغراض المختلفة ، تعرض لها سورة أخرى ، فيتكامل الغرضان ، وتتم الفكرة بتتبعها فى مواطن متعددة ، وذلك لحكمة ومرمى يبين فى غير هذا المكان من الدراسة القرآنية التى تعرض للكلام فى الترتيب

وإنما تنظر الى ما لهذا الواقع من أثر فى طريقة تناول القرآن بالتفسير ، وتتبعه لفهم معانيه وأغراضه ، فيبدو للناظر أن تفسيره سوراً وأجزاء لا يمكن من الفهم الدقيق والإدراك الصحيح ، لمعانيه وأغراضه ، إلا إن وقف المفسر عند الموضوع ليستكمله فى القرآن ويستقصيه إحصاء ، فيرد أوله الى آخره ، ويفهم لاحقه بسابقه . . فالناظر فى سورة البقرة مثلا يجد من الحديث عن المؤمنين وحالهم ما أحسب أنه يفهم الفهم الصحيح ، اذا ما قورن بما فى سورة « المؤمنون » ، من الجزء الثامن عشر — ثم هو واجد فى هذه البقرة عن المنافقين وحالهم مالا يفهم على وجهه إلا مع سورة « المنافقون » فى الجزء الثامن والعشرين . . وقصة آدم فى البقرة ، إنما تفسر مع ما ورد عنها فى سور الاعراف ، والحجر والكهف وغيرها

وأنت — أرشدك الله — مقدر أن الذى يفهم جملة نصوص خاصة بموضوع واحد ، إنما يصل الى صحيح معناها ودقيقه ، بمعرفة سابقها ولاحقها ، ومتقدمها ومتأخرها ، اذا ما كان الزمن قد تباعد بين تلك النصوص ، وبخاصة مثل هذا التباعد الزمنى ، الذى بين آى القرآن ، فقد طال سنين وسنين . . ثم هذا المتفهم محتاج الى ادراك الملابسات والمناسبات والأسباب التى أحاطت بما يفهمه من النصوص ، إذ هى

أضواء لابد منها لاستجلاء المعنى .. وترتيب القرآن لم يرع شيئاً من تقدم الزمن وتأخره ؛ فمكية يتخلل مدنية ، ويحيط به ؛ ومدنية يتخلل مكية ويحيط به ؛ وهكذا ترى من النظر فى ترتيب القرآن على سوره — أى ترتيب كان فى المصاحف المختلفة — ما لا يساير حاجات مفسره المتفهم له ؛ بل يقضى ما كان من أمر الترتيب ؛ بالنظر الجديد والترتيب الخاص لآى الموضوع الواحد ؛ بحيث يكشف هذا الترتيب لنا عن تلك النواحى ؛ التى عرفت أن المفسر المتفهم مضطر الى مراعاتها وتقديرها ؛ توصلا الى الفهم الصحيح ؛ والمعنى الدقيق .

فجملة القول ؛ أن ترتيب القرآن فى المصحف قد ترك وحدة الموضوع لم يلتزمها مطلقاً ؛ وقد ترك الترتيب الزمنى لظهور الآيات لم يحتفظ به أبداً ؛ وقد فرق الحديث عن الشىء الواحد والموضوع الواحد فى سياقات متعددة ، ومقامات مختلفة ؛ ظهرت فى ظروف مختلفة ؛ وذلك كله يقضى فى وضوح بأن يفسر القرآن موضوعا ؛ موضوعا ؛ وأن تجمع آيه الخاصة بالموضوع الواحد ؛ جمعاً إحصائياً مستقصياً ؛ ويعرف ترتيبها الزمنى ؛ ومناسباتها وملابساتها الحافة بها ؛ ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسر وتفهم فيكون ذلك التفسير أهدى الى المعنى ؛ وأوثق فى تحديده ... وليس تفسير القرآن سورة سورة إلا تعرضاً مفرقا لموضوعات مختلفة تنتظمها السورة الواحدة ؛ ثم يعود المفسر بعد ذلك فى السورة الاخرى الى مثل هذه الموضوعات أنفسها . . فان عجل النظرة الجامعة الى هذه الموضوعات فى القرآن كله حينما عرضت له فى أول سورة ؛ فقد آل به الامر الى تفسير الموضوعات ؛ وكانت وقفاته الطوال المتباعدة عند كل موضوع تركا لتفسير السورة وإخلالا به ؛ وإن تعرض للموضوع الواحد مراراً كلما عرض فى السور المختلفة فقد أخل بوحدة الموضوع حين ترك الإلمام الجامع به فى مقام متصل

فصواب الرأى — فيما يبدو — أن يفسر القرآن موضوعا موضوعا ؛ لا أن يفسر على ترتيبه فى المصحف الكريم سوراً أو قطعاً . . ثم إن كانت للمفسر نظرة فى وحدة السوره وتناسب آيها ؛ واطراد سياقها فلعل ذلك إنما يكون بعد التفسير المستوفى للموضوعات المختلفة فيها .

٣ — المنهج الادبى فى التفسير :

واذا ما كان وجه الرأى أن التفسير الادبى لكتاب العربية الاكبر ، هو اول مايجب أن يحاوله من لهم بالعربية صلة لغوية ادبية سواء أكانوا عربا أم غير عرب .. واذا ما كان وجه الرأى أن هذا التفسير الادبى ينبغى أن يتناول القرآن موضوعا موضوعا ، لاقطعة قطعة ، فعلى هذا الاساس يكون منهج التفسير الادبى إذن صنفين من الدراسة ! كما هى الخطة المثلى فى درس النص الادبى (١) وهذان الصنفان هما :

ا — دراسة حول القرآن . ب — دراسة فى القرآن .

فأما دراسة حول القرآن :

فمنها دراسة خاصة قريبة الى القرآن ، ومنها دراسة عامة بعيدة ، فيما يبدو من ظاهر الرأى ، ولكنها فى تقدير المنهج الادبى لازمة لفهم القرآن فهما سليما دقيقا .

والدراسة الخاصة هى ما لابد لمعرفته ، مما حول كتاب جليل كهذا الكتاب : ظهر فى نحو عشرين عاما أو كذا وعشرين عاما ، ثم ظل مفرقا سنين حتى جمع فى أدوار مختلفة وأحوال مختلفة ، وكان جمعه وكتابته عملا ساير الزمن طويلا ، وناله من ذلك ماناله . . ثم هناك قراءته ، ومسايرة هذه القراءة للتطور اللغوى الذى تعرضت له اللغة العربية ، بفعل النهضة الجادة التى أثارتها الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية ، فقد كانت هذه القراءات عملا ذا أثر واضح فى حياة الكتاب وفهمه . وتلك الابحاث من نزول ، وجمع ، وقراءة ، وما اليها هى التى عرفت اصطلاحيا ، منذ حوالى القرن

---

١) بيان هذه الخطة ، وتصحيح الوضع فيها مما انتظمته دراسات كاتب هذه المادة ؛ فى « الأدب المصرى » بكلية الآداب ، من جامعة فؤاد الأول « مخطوطة »

السادس الهجرى باسم علوم القرآن (١) بعد ما تناولها المفسرون المختلفون قبل ذلك بالبحث المجمل ، والبيان المتفاوت فى الاستيفاء، حسب عناية المفسر واهتمامه ؛ ومثل تلك الابحاث جد لازمة ، فى نظر دراسى الآثار الادبية ولا بد منها لفهم النصوص المدروسة والاتصال بها اتصالا مجديا . . بل كان لزوم هذه الابحاث لفهم القرآن مما شعر به القدماء أنفسهم ، حتى قال السيوطى فى مقدمة كتابه « الاتقان فى علوم القرآن » « وقد جعلته مقدمة للتفسير الكبير الذى شرعت » « فيه وسميته بمجمع البحرين ، ومطلع البدرين » « الجامع لتحرير الرواية ، وتقرير الدراية ، ومن الله » « استمد التوفيق والهداية (٢) » . وكان أكثر المفسرين يلمون فى مقدمة تفاسيرهم بشىء من القول فى النزول والجمع ، والقراءات . . وقد أفرد ماحول القرآن من تلك الموضوعات حديثاً بالعناية ، عدد من دارسون هذه الابحاث من الغربيين . وكان أجل من كتب فى ذلك منهم الالمانى نولدكه T-Nöldeke صاحب كتاب تاريخ القرآن **Geschichte des Qurans** ؛ الذى اشترك فى تحقيقه وإكمال طبعته الثانية نفر من علماء الالمان مثل شفالى وزيمرن وبرجشتراسر . وقد جاهد أحد شباننا من خريجى كلية الآداب فترجم الكتاب بمعونة من فى الكلية من أساتذته الالمان وعار فى لغتهم ؛ لكن حالت عوائق تافهة دون طبع الكتاب ، مع أن أبحاث هؤلاء المحدثين قد أفاضت على تلك الموضوعات ألواناً من العناية العلمية ، إن لم تخل من الاتهام فانها لن تخلو من روح النقد والتمحيص التى لا بد منها فى تناول هذه الابحاث .. وهى دراسات ضرورية لتناول التفسير كما أشرنا ، حتى ماينبغى مطلقا أن يتقدم لدرس التفسير من لم ينل حظه من تلك الدراسة القريبة الخاصة حول القرآن ؛ ليستطيع فهمه فهماً أدبياً صحيحاً مسترشداً بتلك الملابسات الهامة فى فهم القرآن .

وأما ما حول القرآن : من دراسة عامة ، فهو مايتصل بالبيئة المادية والمعنوية

---

١) محاضرات علوم القرآن لكاتب هذه المادة فى كلية الآداب « مخطوطة »

٢) الاتقان ج ١ : ٧

التى ظهر فيها القرآن وعاش، وفيها جمع وكتب وقرىء وحفظ وخاطب أهلم أول من خاطب، وإليهم ألقى رسالته لينهضوا بأدائها، وإبلاغها شعوب الدنيا. فروح القرآن عربية، ومزاجه عربى، وأسلوبه عربى، « قرآنا عربياً غير ذى عوج » .. والنفاذ إلى مقاصده انما يقوم على التمثل الكامل. والاستشفاف التام لهذه الروح العربية، وذلك المزاج العربى، والذوق العربى (١) ومن هنا لزمت المعرفة الكاملة لهذه البيئة العربية المادية، أرضها بجبالها وحزارها وصحاريها وقيعانها، وسمائها بسحبها ونجومها وأنوائها، وجوها بحره وبرده وعواصفه وأنسامه، وطبيعتها بجدبها وخصبها وحولها أو ثمانها، ونباتها وشجرها ... الخ. فكل ما يتصل بتلك الحياة المادية العربية، وسائل ضرورية لفهم هذا القرآن العربى المبين ... مع هذا ما يتصل بالبيئة المعنوية بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معنى، من حيث هى روح معروف ومسلم به عربيه وحكومة فى أى درجة كانت وعقيدة بأى لون تلونت، وفنون مهما تتنوع، وأعمال مهما تختلف وتتشعب، فكل ما تقوم به الحياة الانسانية لهذه العروبة، وسائل ضرورية كذلك لفهم هذا القرآن العربى المبين .. واذا جهدت الدراسة الأدبية فى أن تعرف عن تلك العربية والعروبة أكثر وأعمق وأدق مايعرف تبتغى بذلك درس أدبها درسا صحيحاً فان هذا القرآن رأس هذا الأدب، وقلبه الخافق، وأن يدرس درساً أدبياً صادقا، فى حاجة المتعرض لتفسيره إلا بعد أن تستكمل كل وسائط تلك المعرفة للبيئة العربية مادية ومعنوية. أما ما دمنا نقرأ التشبيه العربى القرآنى، أو التمثيل العربى القرآنى، فاذا مادته الاضواء العربية، والظواهر الجوية العربية والحى أو الجماد المشهود فى بلاد العرب لا نعرف عنه شيئا وليس عندنا عنه صورة خاصة، فما يحق لنا مع هذا أن نقول إننا نفسر هذا القرآن أو نمهد لفهمه فهما أدبيا، يهيء للانتفاع به فى

---

١) إن للقرآن معانى ومرامى إنسانية اجتماعية بعيدة الهدف، أبدية العمر، لكن ذلك كله انما جاء الانسانية فى ثوبه العربى وبذلك التعبير العربى؛ والتمثل التام لهذه العروبة هو السبيل المتعينة لفهم ذلك كله والوصول إليه

نواحي أخرى وما دمنا نذكر الحجر ، والاحقاف ، والأيكة ، ومدين ، ومواطن ثمود ومنازل عاد ، ونحن لانعرف عن هذه الاماكن الا تلك الاشارات الشاردة ، فما ينبغي أن نقول اننا فهمنا وصف القرآن لها ولأهلها ، أو اننا أدركنا مراد القرآن من الحديث عنها وعنهم ، ثم لن تكون العبرة بهذا الحديث جلية ولا الحكمة ولا الهداية المرجوة مفيدة مؤثرة !!

ولعله ليس بالكثير مطلقا أن نطلب مثل تلك الدراسات المفصلة لبيئة القرآن الذى هو أحدث الكتب السماوية عهدا ، ولغته التى بها نزل لانزال لغة حية تتكلمها مئات الملايين ، وأدبها هو أدب غير واحدة من الامم ، تدعى لنفسها حق الحياة ، ثم هى أصل كبير للهجات ولغات تقوم دراستها الصحيحة على دراسة هذه العربية . . . ليس بالكثير فى شىء أن نطلب هذه الدراسة لبيئة القرآن وهذه حالته ! لان الكتب الدينية الأخرى أقدم من القرآن بالقرون المتطاولة وبيئاتها قد عفت معالمها ، ولغاتها قد خلت عنها اذ خرجت من الحياة ، ولكنا نجد مافى هذه الكتب الدينية جميعها من حى وجماد ، وحادثة ، وعلم ، قد أفرد بالدراسة ، ووضعت له الكتب المطولة والمعاجم المستوفاة حتى ما يفوت شىء منها من يبتغى معرفته ، وهذا كله الى جانب الدراسات التاريخية والادبية ، والدينية ، والقانونية ، والاجتماعية العميقة المقارنة التى أصابتها تلك الكتب ؛ ولا أتحدث عن الترجمات والنشرات ؛ فتلك نواح أخرى ليست الآن بموضع حديثنا ، ولكن بها تعظم المأثمة فى هذا التقصير الدراسى لكتاب هو أجل وأقدم ؛ وأوثق ما عرفت العربية من آثارها الادبية !

تلك إلمامة بما حول القرآن من دراسة وهى فى جملتها ترجع : إما إلى تحقيق النص وضبطه وبيان تاريخ حياته . . . وإما التعريف بالبيئة التى فيها ظهر ، وعنها تحدث ، وبين مغانيها ومعانيها تقلب . . . وبعد استيفاء ذلك يكون التقدم إلى :

دراسة القرآن نفسه

وهى تبدأ بالنظر فى المفردات ، والمتأدب يجب أن يقدر عند ذلك ، تدرج دلالة

الألفاظ ، وتأثرها فى هذا التدرج يتفاوت ما بين الاجيال وبفعل الظواهر النفسية والإجتماعية ، وعوامل حضارة الأمة ، وما إلى ذلك مما تعرضت له ألفاظ العربية ، فى تلك الحركة الجياشة المتوثبة التى تمت بها الدولة الإسلامية ، والنهضة الدينية والسياسية والثقافية ، التى خلفت هذا الميراث الكبير من الحضارة . . . وقد تداولت هذه اللغة العربية فى تلك النهضات أفواه أمم مختلفة الألوان والدماء والماضى والحاضر ، فتهيأت من كل ذلك خطوات تدرجية فسيحة متباعدة فى حياة ألفاظ اللغة العربية ، حتى أصبح من الخطأ البين أن يعمد متأدب إلى فهم ألفاظ هذا النص القرآنى الأدبى الجليل ، فهما لا يقوم على تقدير تام لهذا التدرج والتغير ، الذى مس حياة الألفاظ ودلالتها ، وعلى التنبه إلى أنه إنما يريد ليفهم هذه الألفاظ فى الوقت التى ظهرت فيه وتليت أول ما تليت على من حول تاليها الأول عليه السلام (١) — وهذا هو أحد الاعتبارات الجوهرية التى تقف فى وجه التفسير العلمى للقرآن على ما أشرنا اليه من قبل —

وإذا كان هو الأصل الأول فى فهم دلالة ألفاظ القرآن ، فمن لنا به مع أن معاجمنا لا تسعف عليه ولا تعين . فأكبر ما نملكه منها وهو « لسان العرب » لابن منظور المصرى ، قد كتب على طريقة المقص والغراء ، كما يقول العصريون ، فتجاورت فيه نصوص تباعدت عصور أصحابها ، فابن دريد فى أوائل القرن الرابع الهجرى (٣٣١ هـ) ، يجاور بن الأثير فى أوائل القرن السابع الهجرى (٦٠٦ هـ) ، وتمازج لغويات الاول دينيات الثانى . . والقاموس المحيط كما نعرفه عصارات غير ممتزجة لثقافات متغايرة متباينة ، من فلسفية عقلية إلى طبية عملية ، فأدبية لغوية ، فدينية اعتقادية أو غيرها . . . معاجمنا لا تسعف على شىء من تحقيق هذا الأصل الثانى .

---

١) لا ينكر أن خلود هذا الكتاب ورياضته الدائمة للحياة مع صلته الوثقى بها . كل ذلك يهيىء لفهم معانى متجددة أو نامية . لكنا مع عدم إنكار هذا القدر نرى أنه لا ينبغى أن تنسب إلى القرآن من هذه المعانى إلا ما كانت طريق فهمه الحس اللغوى للعربية ، وسبيل الانتقال اليه هو دلالة اللفظة الأولى فى عصر نزول القرآن . . . وبيان هذا والتمثيل له مما لا يتسع له المقام هنا

تدرج الألفاظ .. فليس أمام مفسر القرآن حين يبتغى المعنى الأول لألفاظه إلا أن يقوم بعمل فى ذلك ، مهما يكن مؤقتاً وقاصراً فانه هو كل ما يمكن اليوم ، والى أن تملك قاموساً اشتقاقياً تتدرج فيه دلالات الالفاظ ، وتتمايز فيه المعانى اللغوية على ترتيبها ، عن المعانى الاصطلاحية على ظهورها .. فلا معدى للمفسر من النظر فى المادة اللغوية للفظ الذى يريد تفسيره ، لينحى فيها المعانى اللغوية عن غيرها ، ثم ينظر فى تدرج المعانى اللغوية المادة نظرة ترتبها على الظن الغالب ، فتقدم الاسبق الاقدم منها على السابق ، حتى يطمئن — ما استطاع — إلى شىء فى ذلك ينتهى منه الى ترجيح معنى لغوى للكلمة ، كان هو المعروف حين سمعتها العرب فى آى الكتاب .. والمفسر فى هذا التميز والنظر ملم — ما أمكن — بمحدث الدراسة فى أنساب اللغات وصلة ما بينها ، ليطمئن كذلك الى أن الكلمة عربيـــة أصيلة ، أو هى دخيلة ، وإن كانت فما يبتها ؟ وما معناها الأول ؟ .. ثم هو محاذر كذلك من اندفاع معاجمنا فى رد الكلمات الى أصل عربى يشابهها فى اللفظ ، مع التكلف فى الاشتقاق والربط ..

وإذا ما فرغ من البحث فى معنى اللفظة اللغوى ، انتقل بعده إلى معناها الاستعمالى فى القرآن يتتبع ورودها فيه كله ، لينظر فى ذلك ، فيخرج منه برأى عن استعمالها : هل كانت له وحدة اطردت فى عصور القرآن المختلفة ومناسباته المتغيرة ؟ وإن لم يكن الأمر كذلك ، فما معانيها المتعددة التى استعملها فيها القرآن ؟ وبذا يهتدى بمعناها أو معانيها اللغوية الى معناها أو معانيها الاستعمالية فى القرآن ، وهو بما ينتهى اليه من كل أولئك يفسرها مطمئنا فى موضعها من الآية التى جاءت فيها .

وقد حاول الراغب الاصفهانى منذ قرابة ألف عام ، ان يعطينا مفردات القرآن فى قاموس خاص بها . وعانى فيها شبيها بما وصفنا او بشىء من اصل فكرته : ولكنه لم يتم التعقب اللغوى ، ولم يســـتوف التتبع القرآنى ، وفاته مع ذلك كله فرق ما بين عصره وعصرنا فى دراسة اللغات وصلاتها ، إلا أنه فى كل حال نواة تخجل من بعده ، وبخاصة أهل هذا العصر الطموح ، فيؤلمهم ألا يملكوا إلا هذا القاموس القرآنى الناقص

بل البدائى . . وبالتزام هذا المنهج الأدبى يرجى كمال هذا القاموس ، وقواميس أخرى تتطلبها حياة القرآن ، كتاب العربية الأعظم .

* * *

ثم بعد المفردات يكون نظر المفسر الأدبى فى المركبات : وهو فى ذلك ـ ولامرية ـ مستعين بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة . . الخ ولكن لاعلى أن الصنعة النحوية عمل مقصود لذاته ، ولا لون يلون التفسير كما كان الحال قديماً . . بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده ، والنظر فى اتساق معانى القراءات المختلفة للآيات الواحدة ، والتقاء الاستعمالات المتماثلة فى القرآن كله . . ثم على أن النظرة البلاغية فى هذه المركبات ليست هى تلك النظرة الوصفية التى تعنى بتطبيق اصطلاح بلاغى بعينه ، وترجيح أن ما فى الآية منه هو كذا لا كذا ، أو ادراج الآية فى قسم من الأقسام البلاغية دون قسم آخر الخ . كلا ، بل على أن النظرة البلاغية هى النظرة الأدبية الفنية التى تتمثل الجمال القولى فى الاسلوب القرآنى ، وتستبين معارف هذا الجمال ، وتستجلى قسماته ، فى ذوق بارع قد استشف خصائص التراكيب العربية ، منضما إلى ذلك التأملات العميقة فى التراكيب والاساليب القرآنية لمعرفة مزاياها الخاصة بها بين آثار العربية ، بل لمعرفة فنون القول القرآنى وموضوعاته . فنا فنا ، وموضوعا موضوعا ، معرفة تبين خصائص القرآن فى كل فن منها ومزاياه التى تجلو جماله .

ولئن كان مثل هذا مما يطلب أو يوصف فى قليل من الجمل أو الاسطر ، فإن تحقيقه ليس بهذه السهولة والقرب ، وانما يقوم على اصلاح أدبى بلاغى أحسب أن الحياة الأدبية اليوم تحاوله ، وهى بالغة منه إن شاء الله مبلغاً حسنا ، ومستفيدة به فى التفسير الأدبى للقرآن ، كما تستفيد هذه المحاولة الاصلاحية نفسها بمزاولتها للتفسير القرآنى ؛ وإذ أوفى بنا القول على هذا الاصلاح الأدبى فانا نشير إلى ما تنبغى مراعاته من :

التفسير النفسى : لأن ما استقر من تقدير صلة البلاغة بعلم النفس (١) قد مهد السبيل الى القول بالإعجاز النفسى للقرآن ؛ كما كشف عن وجه الحاجة إلى تفسير نفسانى للقرآن يقوم على الإحاطة المستطاعة ، بما عرف العلم من أسرار حركات النفس البشرية فى الميادين التى تناولتها دعاوة القرآن الدينية ، وجدله الاعتقادى ، ورياضته للوجدانات والقلوب ، واستلاله لقديم ما اطمأنت اليه ، وتوارثته عن الاسلاف والاجيال ، وتزييلها بما دعا اليه من ايمان ، ينقض مبرم هذا القديم ويهدم أصوله .. وكيف تلطف القرآن لذلك كله ، وماذا استخدم من حقائق نفسية ، فى هذه المطالب الوجدانية ، والمرامى القلبية ؟ وماذا أجدت رعاية ذلك كله ، فى انجاح الدعوة ، وإعلاء الكلمة ؟ . فالتفسير النفسى ، يقوم على أساس وطيد من صلة الفن القولى بالنفس الإنسانية ، وأن الفنون على اختلافها — ومن بينها الادب — ليست الا ترجمة لما تجده النفس ... وقد ألممنا بذلك فى مكانه من الدراسة البلاغية الفنية ... ولا نقول الآن أكثر من أن اللمحة النفسية فى المعنى القرآنى ، ربما تكون أحسم لخلاف بعيد الغور كثير الشعب بين المفسرين ، قد تأثلوا له البراهين النظرية والاقيسة المنطقية ، وتلاقوا فيه بصنوف الاعاريب ، ومعقد الصناعة النحوية البعيدة عن روح الفن ، أو بالمحاولات البيانية الجافة ، الى النظرات السوفسطائية المسفة وانظر على سبيل المثال تفسير الآيات ١٩٣ - ١٩٥ من سورة الشعراء فى الفخر الرازى ٦ : ٥٤١ - ٥٤٣ ط بولاق - وقابله بتفسير الزمخشرى لهذه الآيات - كشاف ٢ : ١٣٢ ط بولاق - تر الفرق بين الصنيعين وكيف كانت نظرة الزمخشرى النفسية فيصلا حاسما فى الموضوع .. فالملاحظة النفسية هى تعلل نسج الآية وصياغتها ، وتعرف بحو الآية ، وعالمها ترفع المعنى الذى يفهم منها الى أفق باهر السناء . وبدون هذه الملاحظة يرتد المعنى ضئيلا ساذجا ، لا تكاد النفس تطمئن اليه ، ولا هو خليق بأن يكون من مقاصد القرآن .

---

١) بحث « البلاغة وعلم النفس » — لكاتب هذا المقال نشر فى الجزء الثانى من المجلد الرابع لمجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٩ .

والحديث عن التفسير النفسى يذكرنا بما عرض له الأستاذ الإمام ـ روح القدس روحه من صلة بين :

التفسير وعلم الاجتماع : فقد ذكر (١) « أن علم أحوال البشر مما لا يتم التفسير الا به وأنه لابد للنظر فى الكتاب من الناظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم ومناشىء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وايمان وكفر » .. وهذا هو ما جعلنا نفهم من قوله أنه يريد علم الاجتماع ؛ وإن لم يسمه .. ولكنه عقب على ذلك بقوله .. ومن العلم بأحوال العالم الكبير « علوية وسفلية ؛ ويحتاج فى هذا الى فنون كثيرة » من أهمها التاريخ بأنواعه » . وعلى كل حال فنحن انما عنينا بما يقوم به الفهم الأدبى للقرآن ؛ وهو الفهم الذى يتقدم كل استفادة منه . . ثم تتلوه بعد ذلك المطالب الاخرى من هداية الخلق ؛ أو إصلاح حالهم أو التشريع لهم . . فكل هذا يجب أن يقوم على أساس وطيد من الدرس الأدبى الذى أسلفنا وصفه العام ؛ فيتصل بالخبرة النفسية كما ذكرنا ؛ وقد تتصل المطالب الاخرى بعد ذلك بعلم الاجتماع أو غيره

وبعد فقد وصفت الذى وصفته من منهج التفسير الادبى ومطالبه الجليلة ، وأنا ذاكر مالا أنساه أبداً كلما شرحت المنهج الدقيق لدراسة أدبية أو غيرها ؛ فأقول للمستكثرين : مهما يكن لهذه المطالب من أثر يثقل خطانا ويؤخر أثمار دراستنا ، ويشعرنا بالنقص ؛ ويعود علينا باللائمة فان هذه هى الحقيقة ؛ وهذا هو الواجب ؛ وأولى لنا أن نؤثر تقرير هذه الحقيقة على أن نكذب على أنفسنا وعلى الاجيال .فزعم الكفاية الكاملة والقدرة الموفورة . وان لم يكن لنا من الكمال إلا الشعور بالنقص فذلك أجمل بنا من التزيد الزائف . . وليس الذى نبغيه من هذا المنهج مستحيلا ولا

---

(١) مقدمة تفسير الفاتحة ص ١٦ .

بعيد التحقق ؛ فقد شعر أسلافنا بجملته ؛ وقاموا ببعضـــه للقرآن ؛ ثم قام المحدثون به كله ؛ لكتبهم الادبية ؛ والدينية ولن نكون نحن بين هؤلاء وأولئك الضائعين العاجزين ! !

* * *

وأخيراً . . هذا المقال ـ فى أكثره ـ إيجاز مركز ؛ واجمال لامح ؛ يغرى ذوى الشأن فى التفسير بآفاق فسيحة من الدرس والبحث . وما على اذا لم يجد كل قارىء فيه حاجته ؟ ! ! ليس هنا مجال الاستيفاء.

أمين الخولى

المراجع :

(بعد ما أشير اليه فى الهوامش) أمين الخولى ـ :

١ ـ مدخل لدرس التفسير ؛ وبيان المنهج الجامعى فيه ـ دراسات فى كلية الآداب ـ خط

٢ ـ دراسات لبعض موضوعات القرآن كقصصه ـ وأمثاله ـ وتشبيهه . . . الخ فى كلية الآداب ـ خط ـ

٣ ـ أخلاق القرآن ـ ومن هدى القرآن . . . بضعة وخمسون حديثا فى لون من التفسير النفسى والاجتماعى مستمد من الحس اللغوى والجو الأدبى للقرآن أولا . . . طبعت منه مجلة الراديو المصرى بضع عشرة قطعة فى خلال ـ ١٩٤١ ـ ١٩٤٢

الآن (ذى الحجة سنة ١٣٦٢ ـ ديسمبر سنة ١٩٤٣)